

## الفصل الخامس

### فى تشريع العلاقات مع الأعداء

سورة البقرة هى أول سورة نزلت فى الوحى المدنى ٠٠ أى فى الوحى الخاص بالمجتمع ٠ وفى بدايتها حددت :

١ - المؤمنين ٠

٢ - والكافرين ٠

٣ - والمنافقين ٠

٠٠ حتى يكون المؤمنون على علم بأنفسهم ٠٠ وبأعدائهم فى الخارج ، والداخل على السواء ٠٠ وحتى يكون التحديد للعلاقات الذى يأتى به الوحى المدنى بعد ذلك تحديداً واقعياً .

— فوصفت المؤمنين فى قوله تعالى :

« ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ( أى هذا القرآن لاشك فى أنه من عند الله ، وأنه حق وصدق ) ،

« هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ( والمراد به : الله ٠٠ والملائكة ) وقيمون الصلاة ، وما رزقناهم يتفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ، (١) ..

وجعلتهم بذلك أصحاب إيمان ٠٠ وأصحاب تطبيق وعمل . فهم يؤمنون ٠

(١) البقرة : ١ - ٠

بالغيب ، وهو الله ، والملائكة . . . ويؤمنون بالقرآن ، وبما سبقه من كتاب . . .  
ويؤمنون بالآخرة والبعث . وهم أصحاب عمل . . . يقيمون الصلاة . . . وينفقون  
بما رزقهم الله ، ابتغاء وجه الله .

— ووصفت الكافرين بما يقوله سبحانه :

« إن الذين كفروا ( أى من الماديين . . . ومن أهل الكتاب ) سواء  
عليهم : أن أنذرهم ، أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ،  
وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ( ١ ) . .

وأوضح هذا القول : أن الكافرين من أعداء المؤمنين ، لم يكفروا  
لقصور في الحجة . أو لطالب مزيد من الإقناع . وإنما كفرهم جاء نتيجة  
لعدم إرادتهم الإيمان ، ولرفضهم النظر في أى منطلق يوصل إليه . وذلك  
بسبب ما طبعوا عليه ، من سد منافذ الإدراك دونه . فقلوبهم مغلقة . .  
وأسماعهم مغلقة . . وأبصارهم عليها غشاوة . وبذلك لا يستطيعون إطلاقاً  
أن يغيروا من شأن أنفسهم ، وأن يتحولوا من موقفهم عليه الآن . .  
إلى موقف آخر جديد . ويستوى هؤلاء الكافرون في أن يكونوا ماديين  
ومشركين . . أو محرفين ممن لهم كتاب سابق . كذلك يستوى عندهم في  
غلق منافذ الإدراك ، دون الإيمان : أن يأتى لهم نذير بشأن كفرهم وعنادهم ،  
أو لا يأتى إليهم أحد ينذرهم بذلك .

— ووصفت المنافقين ، ممن يتسترون بإعلان الإيمان على حقدهم على  
المؤمنين ، بما جاء في قول الله تعالى :

« ومن الناس من يقول : أمنا بالله ، وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين .  
يخادعون : الله ، والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم ، وما يشعرون .  
في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .  
« وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون .

« ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .  
« وإذا قيل لهم : آمنوا ، كما آمن الناس ؟ قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟  
ألا : إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون .

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ( أى  
إلى من يؤثرون عليهم ، وهم كبرائهم ) قالوا : إننا معكم ، إنما نحن مستهزئون .  
الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا  
الضلالة بالهدى ، فما رجحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل  
الذى استوقد ناراً ( وذلك لأنهم آمنوا أولاً فكأنهم أوقدوا شعلة الإيمان  
في نفوسهم ) فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات  
لا يبصرون » ( لأنهم أطفأوا شعلة الإيمان ، بكفرهم من جديد . فعاد بذلك  
الظلام في حياتهم : إلى ما كان عليه من قبل ) ( ١ ) .

فجعلت هذه الآيات من صفات المنافقين :

- ١ - أنهم ليسوا مؤمنين على الحقيقة : « وما هم بمؤمنين » . .
- ٢ - وأنهم يحاولون بإعلانهم الإيمان . أن يخدعوا الله والمؤمنين :  
« يخادعون الله ، والذين آمنوا » .
- ٣ - وأنهم مرضى النفوس بالنفاق والضعف « في قلوبهم مرض » .
- ٤ - وأنهم يدعون الإصلاح وهم مفسدون : « لا تفسدوا في الأرض ،  
قالوا : إنما نحن مصلحون » .
- ٥ - وأنهم يأنفون أن يكونوا في مستوى واحد مع أتباعهم :  
« قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء » ( وهم المستضعفون أو التابعون ) .
- ٦ - وأنهم جروا أنفسهم إلى ظلام جديد ، بعد أن أشعلوا قبس  
الإيمان في نفوسهم : « فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم  
في ظلمات لا يبصرون » .

(١) لبيرة : ٨ - ١٧

وهؤلاء قد يكونون من الماديين الوثنيين .. وقد يكونون أيضاً من أهل كتاب سابق . وعلى أية حال : الكافرون صراحة .. أو من وراء حجاب شفاف . هم أعداء المؤمنين . وللمؤمنين منهم موقف ، بملية الوحي المدنى ، فى سورة المختلفة . وسرى أن هذا الموقف يختلف بالنسبة للأعداد الماديين ، عنه بالنسبة للأعداء الآخرين من أهل الكتاب .. كما يختلف فى أول قيام المجتمع عنه فيما بعد ذلك ، حتى فتح مكة ، وحتى عزة المؤمنين وقوتهم .

\*\*\*

— فى صلة المؤمنين بالماديين الوثنيين .. أو بالمشركين :

— ولم يكن المجتمع الإسلامى فى بداية عهده بالإيمان بالله وحده : قليلاً فى عدده فحسب .. وإنما كان مع ذلك هزيباً فى قوته المادية : إذ كان أكثر المؤمنين أتباعاً سابقين للزعماء الماديين المسكين ، ولم يكونوا من أصحاب الشرف والجاه بينهم .

وتلك سنة المؤمنين بأى رسول أرسل من قبل الله ، لقوم من الأقوام . إذ كان من يعرفون بالمستضعفين أو الأراذل فى المجتمع هم أول من يؤمن برسالة الرسول المرسل وكان إيمانهم أولاً يسبب حرجاً للزعماء المجتمع — فى ادعائهم — فى إيمانهم بالرسول : « قالوا : أنؤمن لك واتبعاك الأراذلون » ( يقول هذا : زعماء قوم نوح له ، مستنكرين أن يؤمنوا به ، بعد أن سبقهم بالإيمان برسالته : أتباعهم والضعفاء فى مجتمعهم ) (١) .

ومن أجل ضعف المجتمع المؤمن — فى بداية عهده بالإيمان — فى عدده .. وقوته : كان موقف المؤمنين فيه إزاء أعدائهم الماديين ، وهم أكثر شراسة وأشد معارضة فى صراحة وعناد ، هو موقف التريث ، والتحمل ، لصنوف معارضتهم وعنادهم .. وألوان سخريتهم بالمؤمنين واستهزائهم بهم . وجاء هذا الموقف فى آية مدنية فى سورة مكية مبكرة وهى السورة العاشرة ، هى سورة الزمل ، فى قول الله تعالى :

(١) الشراء : ١١١

« واصبر على ما يقولون ،

« واهجرهم هجراً جميلاً » ( أى هجراً لا يشعرون فيه بإيذاء  
نفسى لهم ) (١) .

فإذ يأمر الله رسوله عليه السلام بالصبر على ما يقول هؤلاء الأعداء  
ضده وضد رسالته .. ويوجه إليه الأمر بالصبر وحده يطلب إليه أن  
يكون ابتعاده عنهم في صورة مهذبة ، حتى لا يثيرهم ولا يستفزهم من  
جديد . وكما قيل غير مرة : إن الأمر من الله للرسول هو أمر ضمناً  
للمؤمنين معه ، ولكن صورة الأمر للرسول وحده : تعطى أن الأمر بذلك  
كان مبكراً في مرحلة البداية للمجتمع . وهذا ما يعطيه ترتيب سورة  
المزمل في الوحى المكي . ومعنى ذلك : أن هذا الأمر جاء وضعف  
المؤمنين في قوتهم البشرية ، على أشده .

والأمر بالصبر ، مع الابتعاد عن الأعداء في تهذيب : يمثل المرحلة  
الأولى في موقف المؤمنين من الأعداء الماديين الوثنيين ، أو من  
المشركين المكيين .

وفي آية مدنية أخرى في سورة مكية - وهي سورة الجاثية - يواجه  
القرآن الكريم : المؤمنين بهذا الموقف ، على نحو ما واجه به : رسوله ،  
صلى الله عليه وسلم من قبل . فيقول لهم :

« قل : للذين آمنوا : يظفروا للذين لا يرجون أيام الله ( أى قل  
للمؤمنين : يصفحوا عن هؤلاء الذين لا يتوقعون جزاء الله للمعارضين لدعوة  
رسوله . وهم هؤلاء الماديون ) .

« ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » ( إذ جزاء الله آت ، لا ريب فيه .  
فالعدل يقتضيه . لأنه : لقاء ما باشروه هم بأنفسهم ، ضد دين الله . ومن  
أجل ذلك يستحقون الجزاء على ما كسبوا بالفعل ) (٢) .

•• فيأمر المؤمنين : لا بالصبر فحسب •• وإنما بالصفح عن هؤلاء  
الماديين ، وبأن يتركوا جزاءهم بعد ذلك ، لله وحده • وموقف الصبح  
من المؤمنين إزاء أعدائهم المعارضين : من شأنه أن يحول بينهم - أى بين  
المؤمنين - وأن ينشغلوا بعداوتهم ، عن التكتل ، واستمرار النشاط  
في الدعوة .

وجاءت آية مدنية الثالثة في سورة مكية ، وهى سورة الأحتاف :  
تدعو رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى مزيد من الصبر ، وتذكر له  
أن الصبر فى مواجهة أعداء الدعوة هو السبيل الذى سلكه أصحاب العزم  
والبأس من الرسل ، من قبل . وهو سبيل النجاح للدعوة . كما تؤكد له  
أن العقاب من الله لأعداء الدعوة لاحق بهم حتماً . لأنهم فاسقون وخارجون  
بمعارضتهم عن منطق العقل السليم ، وعن وقائع التاريخ الصحيحة .  
والعقاب لمثل هؤلاء . فتقول :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل (أى أصحاب البأس والإرادة  
النافذة) ،

« ولا تستعجل لهم (أى لاتتقأ بشأن معاملتهم لك ولدعوتك ، ومن  
أجل ذلك تطلب من الله فى نفسك أو فى الدعاء إليه : أن يعجل  
لهم بعذابهم) ،

« كأنهم يوم يرون ما يوعدون . لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ( إذ أن هؤلاء  
المعارضين يوم يلحقهم العذاب لا يتصورون إلا أنهم قضوا فى دنياهم جزء  
من نهار فقط •• وليس يوماً •• ولا شهراً •• ولا سنة •• وهذا كناية عن  
أن عذابهم من شدته سيذهب بكل ما استمتعوا به فى حياتهم ، فى تصورهم .  
أو لو وازنوا آتئذ بين العذاب اللاحق بهم •• والمتعة التى حصلوا عليها ،  
رغم طول الأجل على استمتاعهم بها : لرأوا : أن وقت المتعة لم يزد عن  
جزء واحد من نهار . فالمتعة لاشىء ، بجانب العذاب الذى ينزل بهم) .

« بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » (وعقاب الله بالهلاك لا يكون إلا لفاسق في كفره . وهؤلاء فاسقون في كفرهم . أى خارجون عن حدود المنطق والواقع في معارضتهم . ومن أجل ذلك يتعين الصبر وعدم القلق . فصيبرهم معروف . . . وهلاكهم لاشك فيه ) (١) .

وتأتى المرحلة الثانية في موقف المؤمنين من الأعداء الماديين ، أو المشركين . وهى مرحلة الإذن للمؤمنين بأن يباشروا : رد العدوان بمثله . وهذا الإذن أمانة على أن قوة المجتمع المعنوية والعنوية قد أصبحت ملحوظة ، على الأقل بين المؤمنين أنفسهم . ولكن مع الإذن بمباشرة العدوان : فإن الآية نفسها التى تصرح بهذا الإذن ، تعقب فى نهايتها بإيثار العدو والصفح : الأمر الذى يدل على أن قوة المجتمع معها كانت ملحوظة إذ ذاك : فإنها تقصر عن الاستمرار فى رد العدوان ، لو باشر الأعداء عدوانهم على المؤمنين فى غير انقطاع . يقول الله تعالى فى سورة الشورى :

« وجزاء سيئة : سيئة مثلها (أى يجب أن يلتزم المثل فى رد السيئة والعدوان ، كبدأ أساسى من مبادئ المجتمع فى صلته بأعدائه ) ،

« فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله (ولكن مع إتخاذ هذا المبدأ كقاعدة أساسية : فإن من صفح وتجاوز عن أسباب الخصومة فله جزاؤه عند الله جزاء حسناً) إن الله لا يحب الظالمين (ولكن إذا طلب الصفح والتجاوز عن أسباب الخصومة فليس معنى ذلك أن الله قد رضى عن مباشرة السيئة والاعتداء ، من المسيئين والمعتدين . فالله مع ذلك لم يزل : غير راض عن الظالمين والمعتدين بحال ) .

« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (ومع ذلك لو باشر المظلوم رد الاعتداء باعتداء مثله فليس مذنباً أمام الله فى مباشرته

(١) الأسفاف : ٣٥ .

السيئة وانتصاره على من أساء إليه . ولكن المذنب هو ذلك الذى يبدأ بالظلم والعدوان بغير حق ، على الآخرين . ففوق أنه يناله ممن اعتدى عليه : ما يستحقه من رد عدوانه : فإن له فى الآخرة عذاب أليم .

« ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور » (ورغم أن ردا الاعتداء بمثله : يصور قانوناً عاماً للمجتمع .. ورغم أن مباشرة ردا الاعتداء لا يحمل إثمًا أمام الله : فإن الصبر والتحمل على الإيذاء .. والصفح والتجاوز عن عوامل الإساءة ، لم يزل من المهام الإنسانية التى لا يقوى عليها إلا صاحب عزم وإيمان قوى . وأصحاب العزم والإيمان هم فى نهاية المطاف مع أعدائهم : الناجحون والمتصرون عليهم ) ( ١ ) .

— وإذا طلب إلى المؤمنين فى المرحلة الأولى فى بناء مجتمعهم : أن يصفحوا عن أعدائهم من الماديين الوثنيين : فى استهزائهم وسخريتهم منهم .. وأن يصبروا على ما يقع منهم من إيذاء لهم : فإنه فى الوقت نفسه يطلب إليهم كذلك : أن يدعواهم إلى طرح الشرك والوثنية ، والعودة إلى الوحدة فى الألوهية . أى يطلب إليهم : أن يكونوا إيجابيين معهم فى شأن الدعوة ، فى الوقت الذى يغضون فيه الطرف عن حماقاتهم . يقول الله تعالى فى أول سورة مدنية ، أى فى سورة البقرة ، أيضاً :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ( إذ هذه النعم جميعها على الإنسان : من خلقه وخلق أجياله العديدين ، السابقين منهم ، واللاحقين .. ومن جعل الأرض معبداً للسكنى والحركة عليها .. والسماء مظلة لها .. وماء المطر ينزل عليها فيساعد على إخراج ألوان الثمرات المختلفة ، التى فيها معايش الناس وأرزاقهم .. من شأنها : أن توصل إلى الإيمان بالله وحده ، وطرح جميع أنداده ) ،

(١) الثورى : ٤٠ - ٤٣ .

« فلا تجعلوا لله أنداداً ، وأنتم تعلمون » ( أى لا تجعلوا لله شركاء له ، تدعون أنها متساوية معه فى استحقاق العبادة ، وأنتم تعلمون أن ماتجعلونه لله أنداداً : هو من صنعكم ، ومن تخيلكم وتصوركم أنتم . وليس له واقع فى الوجود : لا فى حياتكم ، ولا فى حياة غيركم . إن أوهامكم تنسج لكم أشباحاً تتخيلون : أنها تشارك الله فى وجوده . وفى صفاته : من أصنام.. أو من منظمات وهيئات .. ومن أشخاص . وهى عاجزة تمام العجز ، حتى عن أن تحمى وجودها أو بقاءها ) (١) .

وفى دعوة المؤمنين ، أعداءهم من الماديين ، إلى الوحدة فى الألوهية : يسلكون معهم طريق الموضوعية فى الإقناع . فلا يجنحون إلى إكراه وحمل لهم فى صورة ما : على قبول ما يدعون إليه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » (٢) . ولا ينالون مما يدعونهم شركاء لله : « ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله ، فیسوا الله علواً بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون » (٣) . وإنما يتلون ما تدعوا إليه آيات القرآن الكريم ، وما تسوقه من دلائل وشواهد مادية تمس حياة الإنسان : على وحدانيته سبحانه ، فى الخلق والعبودية .

• ومع طلب الصفح .. والصبر فى معاملة الماديين : فإن طلب ذلك من المؤمنين كان مقروناً بطلب آخر . وهو الحيطة منهم ، وعدم اتخاذهم أصدقاء ، أو أولياء .. وتحولت الحيطة منهم فى النهاية إلى عدم الثقة فيهم . يقول الله تعالى فى سورة آل عمران ، وهى السورة الثالثة فى الوحى المدنى :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين ( أى لا يؤثر المؤمنون : الكافرين بالصدقة والولاء ، على المؤمنين ) ،

(٢) البقرة : ٢٥٦

(١) البقرة : ٢١ - ٢٢

(٣) الأنعام ١٠٨

« ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ( فهو بعيد كل البعد عن صلته بالله ) ،

« إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير »  
( أى إلا أن تتجنبوا خطرهم . عندئذ فقط يجوز أن لا تكون بينكم وبينهم قطيعة . وعلى كل منها كان : لا تؤثرهم بالولاء على إخوانكم المؤمنين . فإله يناركم عقابه . وهو وحده الذى ترجعون إليه فى مصيركم وانتباه حياتكم ) ( ١ ) .

ومنهج القرآن فى تنبيه المؤمنين هنا إلى اتخاذ الحيطة من أعدائهم الماديين : يوحى بمراحل بشأن هذه الحيطة ، كشأنه فى مجالات أخرى . ففى آية آل عمران السابقة لا يحذر المؤمن من ولائهم لهؤلاء الأعداء ، على الإطلاق . وإنما يحذر المؤمنين فقط من إيثار هؤلاء بالولاء ، دون من عداهم من المؤمنين فى المجتمع . ومعنى ذلك أنه يجوز أن تكون هناك علاقة غير متنافرة مع هؤلاء الأعداء ، ولكن وراء علاقة الولاء التى يجب أن تتم بين المؤمنين بعضهم مع بعض : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » . وفى الوقت نفسه لا يمانع : أن تكون علاقة المؤمنين بأعدائهم الماديين أكثر إنسجاماً ، إذا دعت ضرورة اتقاء أخطارهم : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

فوقف الحيطة والحذر من الأعداء الماديين هنا : فيه مرونة . ويعتبر بذلك بداية لموقف المؤمنين حيالهم . فالمطلوب أن لا يؤثروا فحسب : الكافرين بالولاء ، على إخوانهم المؤمنين .. وأن يطرحوا هذا الموقف جانباً ، عندما يرون وجوب اتقاء ضررهم وأخطارهم .

تدرج هذا الموقف إلى حيطة غير مشروطة . أى أنه طلب إلى المؤمنين : أن لا يلقوا بولائهم إلى أعدائهم الماديين ، على الإطلاق ، وفى

أى وقت وظرف . وهنا يذكر القرآن . طلب هذا الموقف الجديد :  
الأسباب التي تبرره ، كى تتحول العلاقات النفسية السابقة إلى قطيعة بين  
الطرفين . وبهذا ينجوا المؤمنون حتمية من خطر أعدائهم . فسورة الممتحنة -  
وهي السورة الخامسة في الوحي المدني - تقول في بدايتها ، في آيتين  
من آياتها :

« يا أيها الذين آمنوا : لاتتخذوا عدوى وعلوكم أولياء ، تلقون إليهم  
بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ،

« يخرجون الرسول وإياكم : أن تؤمنوا بالله ربكم ( أى هؤلاء  
الأعداء فوق أنهم كفروا بالقرآن - وهو الحق من عند الله - فقد  
أخرجوا الرسول عليه السلام وصحابته من ديارهم بمكة ، فهاجروا منها  
إلى المدينة . وذلك بسبب أنهم أعلنوا الإيمان بالله . وهذا يقتضى منكم :  
أن لاتكون بينكم وبينهم صلة ولاء على الإطلاق .. ولا علاقة مودة  
في أية صورة ) إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل ، وابتغاء مرضاتى  
( أى إذا كان خروجكم من مكة هو من أجل المحافظة حقاً على الإيمان  
ورسالته .. وقصداً إلى رضاء الله وحده : فإنه يتعين عليكم وضع حد  
للصلة الطيبة بهم : لا ولاء لهم ، ولا مودة معهم ) تسرون إليهم بالمودة ،  
وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل  
( وكما لا ينبغي أن يكون لكم ولاء لهم .. ومودة تلقون بها إليهم :  
كذلك لا ينبغي أن تسروا إليهم بالمودة ، في خفاء وفي غير علن . ليس  
لأن الله فقط يعلم ظاهركم وباطنكم ، وما أخفيتم وأعلنتم . ولكن لأن  
المودة إليهم ، إن في السر أو في العلن : ضارة بكم ومؤدية في النهاية إلى  
ضلالكم وحيرتكم ) ،

« إن يتفوقكم ( أى إن يبدونكم ويلقوكم ) يكونوا لكم أعداء  
( أى تظهر عداوتهم لكم ) ويسطوا إليكم أيديهم ، وألسنتهم بالسوء  
( وعندئذ ينالون منكم باليد ، أو باللسان .. يضربونكم ، ويقولون

عليكم بالسوء ) وودوا لو تكفرون» ( فهم لا يتخلون عن عداوتكم ، ولا عن محاولتهم إرجاعكم إلى وثنيهم وتبعيتهم من جديد . وبذلك يتقوض مجتمعكم وتعودون إلى جاهليتكم ) ( ١ ) .

١ - فتنهى هاتان الآيتان عن الولاء والمودة من جانب المؤمنين على الإطلاق إلى أعدائهم الماديين : « لا تتخلوا عدوى وعدوكم : أولياء ، تلقون إليهم بالمودة » : سراً ، أو علناً .

٢ - وتعلان هذا النهى بالباعث القوى لدى هؤلاء الأعداء . وهو : أنهم عندما يتمكنون من المؤمنين يسيئون إليهم بالجراحة وباللسان معاً . وذلك لحقدهم على خروج المؤمنين عن تبعيتهم . ومن أجل ذلك لا يفتأون يحاولون : أن يعيدوهم إلى زعامتهم في مجتمعهم الجاهلي من جديد : « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » .

وهذه الخيطة غير المشروطة ، أو الخيطة المطلقة في عدم ولاء المؤمنين لأعدائهم الماديين الوثنيين في منهج القرآن طلبت من المؤمنين ، بعد هجرتهم من مكة « إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى » أى بعد أن أصبحوا أكثر حرية .. وأكثر قوة عددية .. وإيمانية . وجاءت سورة المجادلة - وهى السورة التاسعة عشرة في ترتيب الوحي المدنى ، بعد آل عمران .. والممتحنة - فأعلنت على سبيل الجزم والتأكيد : أنه لا يجتمع إيمان بالله مع ولاء لمادى وثنى في شخص واحد . فقالت :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر : يوادون من حاد الله ورسوله ( والذى يحاد الله هو من يحاربه ، ويصد عن سبيله . وهو ذلك المادى الملحد ، أو المشرك الوثنى ) ولو كانوا : آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ،

(١) الممتحنة : ١ - ٢

« أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » (١) .

ومعنى عدم اجتماع إيمان بالله مع ولاء لمادى وثنى : فى شخص واحد أنه يجب على المؤمن بالله أن يقطع ولاءه ومودته بهذا العدو الملحد إلى غير رجعة . . . وأنه إذا وجد من هو بين المؤمنين على ولاء ومودة له فإنه فى واقع أمره بعيد عن الإيمان بالله .

وجاءت سورة التوبة - وهى آخر سورة فى الوحى المدنى ، نزلت فى شوال فى السنة التاسعة من الهجرة - بتهديد مجتمع المؤمنين بالفناء ، وبانتظار عقاب الله الذى لا يكون إلا لفاسق : إن هذا المجتمع أقام علاقة ولاء أو مودة مع الأعداء الماديين ، ولو كان من بينهم الآباء ، والإخوان . فتقول :

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا آباءكم ، وإخوانكم ، أولياء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ،

» ومن يتولهم منكم ( أى ومن يواليهم منكم أيها المؤمنون ) فأولئك هم الظالمون ( لأنفسهم وللمجتمع ) .

« قل : إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ،

» وأموال اقترفتموها ،

» وتجارة تخشون كسادها ،

» ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ( أى من طاعة

الله وطاعة رسوله ) وجهاد فى سبيله ، فترهبوا ( أى فارتقبوا وانتظروا )

حتى يأمر الله بأمره ( أى بعقابه لكم . وهو زوال مجتمعكم فى دنياكم ..  
وعدا به لكم فى آخرتكم ) والله لا يهدى القوم الفاسقين ، ( أى أنكم عندما  
تلقون بالولاء والمودة إلى هؤلاء الماديين الوثنيين ، ولو كانوا ذوى  
قرابة منكم : تكونون قد خرجتم من طاعة الله ، خروجاً بيناً واضحاً .  
ومن يخرج عن طاعة الله على هذا النحو لا يهديه الله إلى الصراط السوى .  
ومصيره بعد الضلال والحيرة : مدلته وهوانه على نفسه وعلى غيره ) (١) .

وما جاء فى سورة التوبة هنا لانهى فقط عن الولاء والمودة للماديين  
الوثنيين نهياً قاطعاً . وإنما يجعل الولاء إليهم إن كانوا ذوى قرابة أمانة  
على التمسك بالدنيا وإيثارها على الإيمان بالله ، كذلك الأمارات الأخرى من  
أماراتها من أموال .. وتجارة .. ومساكن ، لو أثرت عن طاعة الله  
ورسوله ، فهى من الدلائل على الخروج عن طاعة الله .

— ويتطور طلب عدم الولاء والمودة من المؤمنين للماديين الوثنيين ،  
فى منهج القرآن الكريم .. إلى طلب عدم الثقة بهم ، وفى عهدهم ..  
وإنذارهم الإنذار الأخير . فتذكر سورة التوبة إعلاناً من الله ورسوله يوم الحج  
الأكبر وهو يوم العيد أو يوم عرفة ، إلى الناس جميعاً تعلمهم فيه : إنهاء كل عهد  
مع المشركين الماديين بعد أن نكثوا بعهد الصلح بالحديبية .. مع إعطائهم  
مهلة أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم . فتقول :

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس ( أى إلى العالم كله ) يوم الحج  
الأكبر ( قيل : إنه يوم العيد . إذ روى : أنه عليه السلام وقف يوم  
النحر عند الجمرات فى حجة الوداع . وقيل إنه يوم الوقوف بعرفة ) :  
أن الله برىء من المشركين ورسوله ( أى أن الله ورسوله ينهيان العهد مع  
هؤلاء الماديين بعد أن ألغوا من جانبهم عهد الحديبية ، بعد مهلة أربعة  
أشهر تعطى لهم يتدبرون فيها الأمر . وقد جاء أول السورة بهذه المهلة فى  
قوله تعالى :

(١) التوبة : ٢٣ - ٢٤

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ( أى لكم حرية الحركة طول هذه المدة ) ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » ( ١ ) ،

« فإن تبتم فهو خير لكم ( أى فإن آمنتم بالله ، وعدتم إلى وحدة الألوهية وامتثلتم إلى ما جاء به الرسول عليه السلام : فهو خير لكم ) وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ( ولكن إن عرضتم وأصررتم على الكفر والمادية : فيجب أن يكون في علمكم منذ الآن : أنكم ستلقون جزاءكم من الهزيمة وانهيار مجتسعكم في دنياكم . إذ أنكم لا تستطيعون أن تعجزوا الله في قدرته وفيما يريد ) وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » ( ومع انهيار مجتسعكم فإن عذابكم في الآخرة أمر محقق . وهو عذاب رهيب ، وأليم في الوقت نفسه ) ( ٢ ) .

فبعد إعلان عدم الالتزام بمعاهدة الماديين في صلح الحديبية : أصبح معروفاً للجميع : أنهم معرضون منذ الآن للقتال وللهزيمة من جانب المؤمنين إن هم آثروا البقاء على معارضتهم وكفرهم : « فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله » .

وهكذا : في منهج القرآن الكريم في شئون العلاقات مع الأعداء يتطور موقف المؤمنين من المشركين الوثنيين أو الماديين ، حسبما طلب منهم :

- من الصبر على إساءتهم والعفو عنها .••
- إلى عدم إثارتهم بالولاء ، دون المؤمنين .••
- إلى عدم الولاء ، والمودة لهم على الإطلاق .••
- إلى استحالة التقاء إيمان بالله مع مودة هؤلاء الماديين في شخص واحد .••
- إلى عدم الثقة فيهم وفي عهودهم بعد إلغائهم عهد الحديبية .••

إلى تخييرهم منذ الآن بين قبول الإسلام، أو انتظار الهزيمة في قتال مرير  
لا يهدأ ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ٠٠

وتتطور دعوتهم إلى الإيمان : في غير إكراه ٠٠ إلى إنذارهم بتقويض  
مجتمعهم ، إن لم يصبحوا في عداد المؤمنين .

هذه المواقف المتطورة تشير أيضاً إلى وضع المجتمع المتطور :

فمجتمع المؤمنين بمكة كان ضعيف العدد والعدة . ولذا طلب منه  
الصبر والصفح عن الإساءة ٠٠

ومجتمع المهاجرين والأنصار بيثرب كان مجتمعاً متفوقاً في عدده وعدته  
على سابقه . ولذا كان موقفه : عدم الولاء على الإطلاق لأعدائهم الماديين .

ومجتمع فتح مكة ظهر تفوقه عملياً على هؤلاء الأعداء الماديين . ولذا  
جعل مطلبه من هؤلاء : إما الإسلام ، أو الإنذار بالقتال ، بعد إعلان إلغاء  
معاهدة صلح الحديبية التي كانت قائمة معهم على رموس الأشهاد ، يوم  
الحج الأكبر . وقد ابتدأوا أهم بالغاؤها .

وكانت الخطوة التالية من جانب المؤمنين هي فتح مكة . وعندئذ أعلن  
إلغاؤها من جانبهم .

وتستمر سورة التوبة في تبرير الموقف الأخير الذي يجب أن يقفه المؤمنون  
من أعدائهم الماديين الوثنيين يوم تكون لهم القدرة . فتقول :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله ، وعند رسوله ؟ ( أى أن  
هؤلاء الماديين لا يستحقون الوفاء بما عاهدوا عليه ، من جانب الله ومن  
جانب رسوله . فإلغاء عهدهم لا ينطوي على إثم أمام الله . بل المحافظة عليه  
يسيء للمؤمنين . لأن هؤلاء الأعداء يربصون بالسوء بالمؤمنين ٠٠ وليس لهم  
عهد ولا ذمة ، مهما أكدوا العهود والمواثيق . فقد أملوا بعض شروطهم  
على المؤمنين في صلح الحديبية قبل الفتح . ومع ذلك لم يلبثوا حتى نقضوها

بالاعتداء على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت خزاعة حليفة للمؤمنين . فاعتبر المؤمنون الاعتداء على خزاعة من جانب المكين نقضاً لتلك المعاهدة معهم ) ،

« إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ( وهم بنو حزمة - وبنو كنانة ) فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ( أى لا تنقضوا معاهدتهم بعد مضي أربعة أشهر ، كما أنذرتم الآخرين . ولكن يجب أن تنموا لهم معاهدتهم إلى مدتها - ويقال : إنه كان قد بقي منها تسعة أشهر - طالما لا ينقضون العهد معكم ) إن الله يحب المتقين .

« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم : إلا ، ولا ذمة ( إنه من العجب حقاً : أن لا تنقضوا العهد معهم . لأنهم لو تمكنوا منكم لا يرعون في معاملتكم : عهداً ولا ميثاقاً ) يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ( إنهم فحسب يشعرونكم بالرضى عنكم بلسانهم . أما قلوبهم فهي منظوية على الحقد والغل لكم . وذلك يرجع إلى أن كثرتهم قد خرجت خروجاً واضحاً في الكفر والعصيان والتحلى . فقد باعوا كتاب الله ، وأعرضوا عنه ، واستروا في كفرهم به : لقاء ثمن قليل ، وهو الإبقاء على زعامتهم في مكة . وفي سبيل المحافظة على هذه الزعامة يصدون عن سبيل الله . . . ويسلكون مسالك السوء ، حتى بعد فتح مكة ) ،

« لا يرقبون في مؤمن إلا ، ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ( وشأنهم مع المؤمنين - وليس فقط في حال تمكنهم منهم - أنهم لا يراعون فيهم عهداً ولا ميثاقاً . لأنهم دأبوا على الاعتداء عليهم ، وعلى رسالة الله بينهم فهم لا يؤمن جانبهم بحال ) .

« فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . . فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ( والموقف الذى يجب أن يتخذ الآن حيالهم هو : أنهم إذا عادوا إلى الله - وأمارة عودتهم إليه أمران : إقامة الصلاة . . وإخراج الزكاة - فهم إخوان لكم في الدين )

« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ( وإذا لم يعودوا إلى دين الله .. واستمروا على ما هم عليه : من نقض العهود والمواثيق .. والطعن في دين الله ، والصد عن سبيله ، كشأنهم دائماً .. أى إذا لم يغيروا من طبيعتهم وعاداتهم عندئذ : يجب مقاتلتهم ، ولا يكتفى بإنذارهم بالقتال . وعندما تقاتلونهم تقاتلون زعماءهم والمستكبرين فيهم . لأن هؤلاء هو الذين يحرصون على نقض العهود والمواثيق ، ولا يلتزمون بها . وربما قاتلم ينهى وضع المادية وأثرها . إذ التابعون لهؤلاء الزعماء والمستكبرين لا يرون حرجاً في الانتقال من مجتمعهم الجاهلي الفاسد ، إلى المجتمع الإنساني ، صاحب القيم العليا ) .

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ( بنقض عهد الحديبية ) وهموا بإخراج الرسول ( قبل الهجرة ) وهم بدأوكم أول مرة ( بالعدوان ) أتخشونهم ؟ فإله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم .

« ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » ( ١ )

والموقف الأخير إذن الذى يجب أن يفقه المؤمنون من هؤلاء الأعداء الماديين : لا يتلور فحسب في إلغاء العهود القائمة ، بعد نقضها من جانبهم . ولا في إنذارهم وتخييرهم بين الإسلام والقتال . وإنما ينهى بطلب القتال لأنهم أولاً : « فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » :

وأسباب هذا الموقف تعود إلى :

أولاً : أن الماديين لا عهد لهم ، حسبنا تعودوا ، وجبت عليه طبيعتهم : « إنهم لا أيمان لهم » .

( ١ ) التوبة : ٧ - ١٥ .

ثانياً : وأنهم يضمرون العداة الشديد للمؤمنين ، وفقط يرضونهم بالقول ، والوعد : « يرضونكم بالفواهم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون » ،

ثالثاً : وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين ليقضون عليهم ، ولم يراعوا في القضاء عليهم : عهداً قطعوه لهم على أنفسهم ، بالأمان أو بالصدقة معهم : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم : إلا ، ولاذمة » ،

رابعاً : وأن نواياهم السيئة بالنسبة للمؤمنين تظهر جلية في حنة هؤلاء فيوم أن كان المسلمون بمكة قلة هموا بإخراج الرسول منها . ويوم أن أملوا عليهم معاهدة صلح الحديبية نقضوها بالاعتداء على حلفائهم ، ظناً منهم أن المسلمين لم يصبحوا بعد في مركز القوة : ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم » .

وهذا الموقف الذي يمدده القرآن الآن ضد الماديين : ليس خاصاً بمشركي مكة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا : أن الله مع المتقين » (١) . وإنما هو ضد كل مجتمع مادي ، في أي عهد من عهود التاريخ . إذ لم يكن مشركو مكة أصحاب نزعة فريدة في حياتهم ، في تاريخ البشرية ، فجاء ما في القرآن هنا علاجاً ، أو قضاء على هذه النزعة فيهم . وإنما حديث القرآن هو حديث عن الإنسان : عن هذا الإنسان الذي يهتدى بهداية الله عن طريق الإيمان به . وعن ذلك الإنسان الآخر الذي يكفر به . وباتسليم العليا في سيات الإنسان ، ولا يؤمن إلا بالعلاقات المادية والمبادلات المنفعة والمصلحية وحدها .

وهذا الإنسان .. وذلك الآخر : يوجدان في تاريخ البشرية .. إلى يوم البعث . كما وجدنا على عهد الرسالات الإلهية ، حتى رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ( من القرآن ) حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » (٢)

— والقتال الذى يطلبه القرآن الآن بعد فتح مكة ضد الوثنيين الماديين في سورة التوبة: قد باشره المسلمون من قبل في لقاءهم مع هؤلاء الأعداء. ولكن مباشرة المسلمين لقتال أعدائهم في الغزوات قبل الفتح: كان ردأ لاعتداء هؤلاء عليهم، وقد أذن لهم إذناً عاماً ببرد الاعتداء، إذا كان هذا الاعتداء في أى وقت في صورة قتال. فقد جاءت سورة الحج — وهى السورة السابعة عشرة في ترتيب الوحي المدني، أى قبل سورة التوبة بعشر سور — بهذا الإذن في قول الله تعالى:

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا (أى أذن للذين اعتدى عليهم بالقتل ظلماً وعدواناً: بأن يباشروا القتال، ضد أعدائهم لرد اعتدائهم عليهم) وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا: ربنا الله (وهؤلاء الذين ظلموا بالعدوان عليهم من جانب الماديين الوثنيين: كان الاعتداء عليهم بسبب إيمانهم بالله. فأخرجوا أولاً من ديارهم بغير حق، وهاجروا منها إلى المدينة. وحرمان أى إنسان من الإقامة في مسكنه.. وفي موطنه هو تعذيب له، وإنكار لذاتيته. فهو قتل نفسى، ونفى مادى).

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت صوامع (معابد النصرى) وبيع (وهى أمكنة رهبانهم) وصلوات (معابد اليهود) ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً،

«ولينصرن الله من ينصره (وهذا وعد من الله سبحانه بنصره للمؤمنين به حقاً، المطيعين لما جاء في رسالته. لا يبيغون من الدنيا إلا سبيل الله وحده) إن الله لقوى عزيز (وسبحانه قادر على الوفاء بما يعد. فهو صاحب القوة وحده.. وهو كذلك العزيز الذى لا ينال من قدرته موجود آخر).

«الذين إن مكناهم في الأرض، أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر (ومن بعد الله بنصرهم: هم هؤلاء الذين إن مكنوا في الأرض وتركوا فيها من غير مناوأة أو اضطهاد: داوموا على

الصلاة ، تعبيراً عن صلّتهم بالله سبحانه . . وأخرجوا الزكاة ، عنواناً على أنهم يسودون أنفسهم وشهواتهم ، ويعيشون لدين الله وحده ، وليس لمال أوجاه . . وأمروا غيرهم بالمعروف وما فيه خير للناس وكانوا فيه قدوة عملية . . ونهوا عن المنكر والقبائح والفحشاء وكان كذلك في تجنبها قدوة للآخرين . والله إذن لا يعد بنصر من يسعى إلى سلطة أوجاه . . أو إلى توسع وزعامة دنيوية ( والله عاقبة الأمور ) (١) .

والإذن بالقتال هنا للمؤمنين مشروط إذاً بالاعتداء على جماعتهم من هؤلاء الماديين . أما القتال الذي انتهى منهج القرآن إلى طلبه من المؤمنين أخيراً بعد قوتهم ، بديلاً عن الصبر والصفح أول الأمر وهم ضعفاء : فإنه لوقاية دين الله ، وحمايته من أعدائه الألداء الدائمين وهم هؤلاء الماديون وقد جاء توضيح الأمرين في قول الله تعالى :

« وقاتلوا في سبيل الله ( وليس في سبيل دنيا . . أو سبيل جاه ومنتعة . وليس هناك إذن قتال في القرآن من أجل غزو ، أو توسع استعماري ) الذين يقاتلونكم ( وهم هؤلاء الماديون الذين يضمرون لكم كل سوء ) ولا تعتدوا ( أى ولا تتجاوزوا حدود رد الاعتداء عليكم ) إن الله لا يحب المعتدين .

« واقتلوهم حيث تقفتموهم ( أى وجدتموهم في أى مكان ، وفي أى وقت ) وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ( أى وعاملوهم كما عاملوكم من الإخراج من دياركم ) .

« والفتنة أشد من القتل ( أى وما يثيرونه من بلبلة واضطراب في صفوفكم سبب كاف كذلك في قتالهم . بل ذلك سبب أقوى في مقاتلتهم ) .

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ( احتراماً لحرمة ) حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله

غفور رحيم ( أى فإن أوقفوا اعتداءهم عليكم فيجب أن توقفوا قتالهم كذلك . إذ الله — وهو صاحب الكون كله — من صفاته الغفران والرحمة فاقتدوا به سبحانه . وإلى هنا : طلب قتال الأعداء الماديين إنما هو لحماية المجتمع المؤمن ووقايته من الفناء والضياع . بدليل أن على المؤمنين هنا أن يتوقفوا عن القتال ، إذا توقف أعداؤهم عنه ) .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ( أى بلبلة واضطراب ) ويكون الدين لله ( أى وحتى لا يكون هناك مادي يشرك بالله أو ينكره . . وبالتالي حتى لا يكون هناك مصدر للفتنة ، وهو اتجاه المادية فى الحياة . وهذا الأمر بالقتال هنا هو لحماية دين الله ) فان انتهوا ( عن المادية والشرك ، وأصبحوا لكم إخواناً فى الإيمان ) فلا عدوان إلا على الظالمين » (١) ( أى فلا قتال إلا لاعتد : كان من كان ، ولومن المؤمنين : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تطفىء إلى أمر الله » (٢)

وإذن : القتال الذى يريده القرآن كوقف ضد الماديين هو لوقاية الإيمان ضد عدوان هؤلاء المبيت ، بعد أن اتضح طبايعهم ، وانكشفت نواياهم فهذا موقف حيطة ووقاية .. وذلك موقف رد لاعتداء .

\*\*\*

فى صلة المؤمنين بأهل الكتاب :

— المفروض أنه كان يجب أن يقف اليهود والنصارى — وهم أهل كتاب — من القرآن ٠٠ والرسول عليه السلام : موقفاً آخر ، يختلف عن موقف الماديين المنكرين للألوهية ، واليوم الآخر . المفروض أنه طالما كان القرآن مصدقاً لما بين أيديهم من كتاب من جانب ٠٠ ومعلناً من جانب آخر : أمره إلى الرسول عليه السلام بالإيمان بجميع الرسل بقوله : « قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ( وهو القرآن ) وما أنزل على إبراهيم ،

(٢) الحبرات :

(١) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣

واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والاسباط ، وما أوتى موسى ،  
وعيسى ، والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له  
مسلمون » (١) . . طالما كان هذا . وذلك . . وطالما كانت أيضاً  
دعوة القرآن إلى اليهود والنصارى : هى دعوة التساوى بينهم وبين المؤمنين  
فى الوحدة فى الألوهية ، وتجنب الشرك والوثنية ، والابتعاد عن تأليه البشر  
على نحو ما يدعو إليه القرآن فى قول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا  
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ  
بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » (٢)  
.. طالما كان هذا كله فليس ما يمنع أهل الكتاب السابقين من يهود ،  
ونصارى ، من الإيمان بالقرآن ، سوى تشبث الزعماء فيهم بزعامتهم الدينية  
الخاصة . . وسوى منافعهم المادية والمظهرية من هذه الزعامة .

وقد واجه القرآن هؤلاء الزعماء بموقفهم هذا ، فى قول الله تعالى :

« أنا أمرون الناس بالبر ( أى باتباع الحق ، وعمل الخير ) ، ونفسون  
أنفسكم ( أى فلا تتبعون أئمة الحق ، ولا تصنعون الخير . وذلك بعدم  
إيمانكم بالقرآن . والخطاب موجه إلى زعماء بنى اسرائيل ) وأنتم تتلون  
الكتاب ( رغم أنكم تقرأون ما فى التوراة والإنجيل ) أفلا تعقلون ! ؟

« واستعينوا بالصبر والصلاة ( وأنتم لو استعتم بالصبر فى ترككم جاه  
الزعامة ، عندما تؤمنون بالقرآن وبرسوله . وبالصلاة فى صلتكم بالله :  
لسرتم إلى الإيمان بهما فى غير مشقة ) .

« وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون : أنهم ملاقوا ربهم ،  
وأنهم إليه راجعون » ( ولكن ترككم الزعامة ، وتحولكم إلى الإيمان بالقرآن  
وبرسوله ، ومشاركتكم المؤمنين فى الصلاة إخواناً لهم : يشق على نفوس  
الزعماء فيكم ، دون التابعين لهم إذ أن هؤلاء التابعين لم يتأثروا بالاتجاه المادى

(٢) آل عمران : ٦٤

(١) آل عمران : ٨٤

الذى تأثر به زعمائهم ، فحرصوا على الزعامة وجاه الحياة الدنيا . ومن لم يتأثر بالاتجاه المادى لا ينكر لقاء الله فى الآخرة . بل ينتظره ، كأمر مرجو (١) .

### — دعوة أهل الكتاب إلى طرح المعارضة :

وكانت الدعوة إلى أهل الكتاب من جانب المؤمنين هى أن يطرحوا المعارضة . وترتكز هذه الدعوة على أمرين :

الأمر الأول : تذكيرهم بنعم الله عليهم ،

الأمر الثانى : إعلان المساواة بينهم وبين المؤمنين فى الجزاء ، إن سلكوا جميعاً المسلك المشترك فى الإيمان بالله .

فى الأمر الأول جاءت سورة البقرة بقول الله تعالى :

« يا بني إسرائيل : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ( وهى نعمة الرسالة . . ونعمة النجاة من فرعون وملائته . . ونعمة استيطان الأرض المباركة . . ) وأوفوا بعهدى » (٢) ( وقد أخذ العهد عليهم على نحو ماتحكيه بعض آيات البقرة فى قول الله تعالى : « واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل : لا تعبدون إلا الله وبالو الدين إحساناً ، وذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون . واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك

(٢) البقرة : ٤٠

(١) البقرة : ٤٤ - ٤٦ .

منكم إلا خزي في الحياة الدنيا . ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون . ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسول ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلظ ، بل لعنهم الله بكفرهم ، فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله (القرآن) مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ( أى يستنصرون ويطلبون النصر على الكافرين الماديين ) فلما جاءهم ما عرفوا ( وهو القرآن ) كفروا به ( وبكفرهم بالقرآن أصبحوا في جانب الكافرين الماديين ، خصومهم بالأمس ) فلعنة الله على الكافرين « ( جميعاً : من ماديين . . وأهل كتاب معارضين ) (١) . . « يابى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدى : أوف بعهدكم ، وإبى فارهبون .

« وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ،

« ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ( وهو الزعامة والرياسة في قومكم ) وإبى

فاتقون .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل ( أى تخلطوا الأمرين معاً فلا يعرف

الحق ) وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ( فلا تظهروه فيما تقولون وتتحدثون

مع علمكم بأنه الحق ) .

« وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ( فهما فريضتا : الإيمان . . وأمارتا

التحول من المادية إلى الروحية الإنسانية ) واركعوا مع الراكعين « ( أى

كونوا في صفوف المسلمين ) (٢)

(٢) البقرة : ٤٠ - ٤٣

(١) البقرة : ٨٣ - ٨٩

وفي الأمر الثاني يعلن القرآن : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ،  
والنصارى ، والصابئين ( وهم عباد الكواكب بين الأشوريين والنبطيين ) :  
من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ( أى أدى عبادة الله )  
فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ( ١ ) .

فهناك إذن ما يدعوا اليهود والنصارى — وهم أهل الكتاب السابقون —  
للإيمان بالقرآن وعدم معارضته . فهناك العهد الذى أعطوه لله بالبقاء  
على الإيمان به ، وعدم الجنوح إلى إتجاه المادية فى الحياة . وهناك ضمان  
المساواة مع المؤمنين فى جزاء الله ؛ وفى تأمينهم من الخوف ، والأسى  
فى حياتهم ، بسبب السلوك السوى عندئذ .

ولأن موقف أهل الكتاب من القرآن ظل موقف معارضة وليس موقف  
استجابة للإيمان به : لم يكونوا إذن مؤمنين حقاً بما جاءهم من التوراة ،  
والإنجيل :

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة ، والإنجيل  
( أى حتى تؤمنوا ، وتعملوا بما جاء فيهما ) وما أنزل إليكم من ربكم  
( وحتى كذلك تؤمنوا وتعملوا بما أنزل الآن إليكم من ربكم ، وهو  
القرآن ) .

« وليزيدن كثيراً منهم : ما أنزل إليك من ربك ، طغياناً وكفراً »  
( أى ولكن كان موقفهم من القرآن : أنهم لم يكفروا به فحسب . وإنما  
زادوا به عناداً ، وتصلباً فى زعامتهم ، وطغياناً وكفراً بما جاء إليهم  
هم . لأن موقفهم من القرآن ينعكس على موقفهم من التوراة ، والإنجيل .  
إذ أن كلام الكتاب الثلاثة يمثل رسالة واحدة ، وهى رسالة الألوهية  
فى استقامة البشر : فى اعتقادهم وسلوكهم ) ( ٢ ) .

( ٢ ) المائة : ٦٨ .

( ١ ) البقرة : ٦٢ .

ولكى يتهم رعماء أهل الكتاب السابقين : القرآن بأنه ليس مصدقاً لما بين يديه من كتاب لله قبله : أخذوا يغيرون ما بين أيديهم فينتقلون أو يتحدثون عما يشاءون منه . . ويتركون ما يشاءون أن يتركوه . فما ذكروه هو كتاب الله في نظرهم : . وما لم يذكره ليس من كتاب الله في ادعائهم . وبذلك بعدت الشقة بين القرآن من جانب ، وكتابتهم من جانب آخر . ويشير إلى هذا التغيير : رد القرآن على المشركين الماديين في طلبهم أن يكون الرسول من الملائكة ، وليس من البشر في قوله تعالى ، في آية مدنية في سورة مكية — وهي سورة الأنعام ، أو السورة الخامسة والخمسون في ترتيب الوحي المكي — في قول الله تعالى :

« وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ( أى عندما ادعوا : أن الله لم يختر من البشر رسولا . . في معارضة الرسول عليه السلام — لم يكونوا مقدرين لله تمام التقدير في أنه يعلم : أنهم يكذبون ، ويتجاهلون التاريخ . والخطاب للماديين المكيين ) ،

« قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، نوراً وهدى للناس؟ ( ويكفى أن يسألوا عن طبيعة الرسول الذى أرسل بالكتاب إلى بنى إسرائيل : أليس هو موسى ؟ وأليس موسى إنساناً ؟ . وكان هؤلاء الماديون على علم بهذه الحقيقة ، لوجود اليهود بين عرب شبه الجزيرة . وهذه الحقيقة ذاتها وهى معلومة لهم تؤيد : أنهم كذبوا على الله عندما قالوا : إن الملائكة وحدها — وليس البشر — هى التى تنزل بالرسالة . وكتاب موسى كان هداية ونوراً للناس . ولكن هل تبقى هداية ونوراً ؟ أم أن أحبار اليهود صنعوا به ما حجبوا هدايته ونوره على الناس ؟ ) .

« تجعلونه قراطيس : تبدونها ، وتخفون كثيراً ( ١ ) ( و لخطاب هنا لزعماء اليهود : يحملهم فيه مسئولية حجب هداية التوراة ، وحجب نورها عن الناس ، حتى ظهرت المادية من جديد وظهرت ظلماتها بين

بنى إسرائيل . ولذا كان لا بد من رسالة محمد بن عبد الله لتضيء للناس من جديد : نور الله ، وتكشف عن هدايته ، على نحو ما جاء في القرآن الكريم . والقرآن من أهدافه إذن : أن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون عن الحق ، كما أراد الله : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » (١) .

وما صنعه علماء اليهود فى التوراة حتى حجبا نور الله فيها عن الناس ، هو : أنهم لم يعرضوا كل ما فيها ، كما هو . وإنما ذكروا بعضاً مما فيها لأتباعهم ، ولم يذكروا البعض الآخر منها ، وهو كثير . وبذلك أصبحت لاتعطى الصورة الكاملة لهداية الله : « تجعلونه قراطيس ( أى أجزاء وأقساماً ) تبدونها ، وتخفون كثيراً . وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل : الله ( أى هو الله الذى أنزل الكتاب على موسى لبنى إسرائيل . وهذا هو جواب السؤال السابق : « قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » . ( أى قل ذلك فى مواجهة الماديين المكيين ) ثم ذرهم فى خوضهم ياهبون » ( أى و اتركهم بعد ذلك مستمرين فى لغوهم بالباطل وفى أكاذيبهم ) ( ٢ ) .

### موقف الصفح . . والصبر :

— ولأن موقف أهل الكتاب بالنسبة للمؤمنين الآن لا يقل خطورة عن موقف الأعداء الماديين الوثنيين : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين : أن ينزل عليكم خير من ربكم ( وهو الرسالة ) والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ( ٣ ) . . . بحيث أصبحوا يتمنون جميعاً أن يعود المؤمنون من جديد : كفاراً ، وأن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من قبل فى المجتمع الجاهلى . . . وبحيث أصبحوا أيضاً يطلقون ألسنتهم بالسوء فى شأن المؤمنين : كان من خطوات منهج القرآن : أن ينصح المؤمنين ،

(٢) الأنعام : ٩١ .

(١) النمل : ٧٦ - ٧٧ .

(٣) البقرة : ١٠٥ .

وهم في بداية تكوين مجتمعهم ، باتخاذ موقف الصفح .. والصبر : على ما في صدور أهل الكتاب من حقد .. وعلى ما يشيعونه بالسنتهم من سوء . فجاءت سورة البقرة تطلب ذلك : في قول الله تعالى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً : حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ( في أن محمد صلى الله عليه وسلم : رسول الله .. وفي أن القرآن كتابه المنزل . وهذه الحقيقة ستلقمهم ، إن لم تقوض زعامتهم . لأنهم يعيشون الآن على ما في أيديهم . وما في أيديهم من رسالة إلهية لم تعد جديرة بالاعتبار في شأن الإنسانية ، بعد أن طرأ عليها من التغيير بصنيعهم : ما طرأ . فيهم بعد ظهور هذه الحقيقة يحسدون الرسول والمؤمنين معه ، على ما جاءه من فضل الله ، باختياره لرسالته ) ، « فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتي الله بأمره ( أى وليكن موقفكم الآن هو الصفح والعضو عنهم .. إلى أن يأتي أمر الله بموقف آخر لإزاءهم .. أو يأتي الله بأمره في عذابهم فيزيل مجتمعهم في الدنيا ، ويقوض زعامتهم ونفوذهم في أتباعهم ) ،

« إن الله على كل شيء قدير » ( أى يستطيع من مركز القوة : أن يحدد مصير أى مجتمع .. ونهاية أى إنسان ) ( ١ ) .

وتأتى سورة آل عمران فتقرن عمل أهل الكتاب ، بعمل الماديين ضد المؤمنين وتسوى بينهم ، وتطلب إلى هؤلاء المؤمنين : أن يستعينوا بالصبر والتقوى لإزاء أذى الفريقين معاً . فيقول الله تعالى في آية فيها :

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ( أى يجب أن ترقبوا : ابتلاء الله لكم بالمال .. والعصية . فإما أن تشكروا الله على نعمته عليكم فتنفقوا من المال في سبيله .. وتوجهوا قوة العصية في الجهاد من أجل الدعوة . وإما أن تكونوا إزاء هذه النعمة كما كنتم من قبل : أشحاء النفوس بمالككم .. وكثيرو الاعتداء بقوة عصبيتكم على غيركم ) ،

« ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا : أذى كثيراً ( كما يجب أن ترقبوا : إيذاء متكرراً ، من أهل الكتاب .. والماديين ، على السواء ، بطرق أسماعكم من وقت لآخر . لأن أياً من الفريقين لا يهادنكم .. ولأن أياً منهما لا يود وجودكم ، وإن كان لسبب يختلف في ظاهره لدى فريق ، عنه لدى فريق آخر . فأهل الكتاب يخشون على زعامتهم الدينية .. والماديون يخشون على منفعتهم المادية . والحقيقة أن كلاهما طالب دنيا ، عن طريق الرياسة في أى شكل ) ،  
 « وإن تصبروا ، وتقفوا فإن ذلك من عزم الأمور » ( والذي ينجيكم من أذى هؤلاء .. وأولئكم : هو الصبر .. وتجنب الاعتداء والاحتكاك بأى من الفريقين .. والسير قدماً في سبيل الدعوة والإيمان بها ) ( ١ ) .

.. الحذر ، والحيلة :

— وموقف الصفح والصبر إزاء أهل الكتاب لا ينجح عملياً بالنسبة للمؤمنين إلا إذا صحبه موقف آخر منهم . وهو موقف الحيلة والحذر مما يقوله .. أو يصوره .. أو يفعله أولئكم الذين انقلبوا إلى أعداء ، وكان الأجدر بهم : أن يبقوا إخواناً متعاونين مع المؤمنين .

وجاء التحذير — حسب منهج القرآن — أولاً في صورة غير مباشرة . أى في صورة استبعاد : أن يؤمل في إيمانهم حقاً برسالة القرآن .. وأن يلقوا إلى المؤمنين بقلوبهم وإخلاصهم . فتقول السورة الأولى في الوحي المدني :

« أفطمعون : أن يؤمنوا لكم ؟ ( أى لا تؤملوا أيها المؤمنون في أن يخلص إليكم أهل الكتاب — وبالأخص هؤلاء المجاورون لكم من اليهود في يثرب — في إيمانهم بالرسول وبكتابه ) وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ( وعدم الأمل

( ١ ) آل عمران : ١٨٦ .

في إخلاصهم في الإيمان : يعود إلى أنهم كانوا يسمعون من الرسول عليه السلام كلام الله ويفهمونه . ولكن إذا تحدثوا به حرفوه وأسأوا في تأويله ، وهم يعلمون : أنهم يحرفونه ، فهم يرتكبون جريمة التحريف مع علم سابق ، وبعد فهم صحيح لما سمعوه . ومثل هؤلاء تجب الحيلة منهم ) ، « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلاتعقلون » ( وهناك سبب آخر يعود إلى عدم الأمل فيهم . وفي وجوب اتخاذ الحذر منهم ، وهو : أنهم يخدعون المؤمنين فلا يعلنونهم بحقيقة أنفسهم ، وهي أنهم يعارضون الرسول عليه السلام وكتابه . ولكن يقولون لهم بالسنتهم : أنهم مؤمنون ، نفاقاً . بينما هم بين بعضهم بعضاً يخدعون أنفسهم من قول الحق فيما سمعوه من الرسول ، خشية أن يتخذ ضدهم حجة عند الله . وهذا معناه : أنهم ينكرون الحق فيما أوحى بالقرآن ويستمرون في كفرهم به . فهم مؤمنون في العلن . وكافرون في الخفاء . والمناق أو المخادع لا يؤمن جازبه . والعاقل هو من يخطأ منه ، ويرتاب فيه . إنهم يخفون الحق في رسالة الرسول بتحريفه . ويظهرون الإيمان ، خداعاً للمؤمنين ) ( ١ ) .

### — النهي عن الولاء لهم :

وكتيجة لطلب الحذر والحيلة من أهل الكتاب ، بناء على عدم إخلاصهم ، وضعف الأمل فيهم : تأتي الخطوة الثانية في منهج القرآن في تطوير المجتمع . وهي خطوة النهي عن الولاء لهم ، والارتباط بهم ارتباط صداقة . وثقة . فتقول السورة الثالثة في الوحي المدني ، وهي سورة آل عمران :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ( أي ممن عداكم من غير المؤمنين . والمقصود بهم هنا : أهل الكتاب . والبطانة هي أهل السر ، والثقة : يوثق بمودتهم ، ويطمئن لإيهم ) ،

« لا يألونكم خبالاً ( أى لا يقصرون فى بث الفساد بينكم ) ،

« ودوا ما عنكم ( أى ويريدون عنتكم ومشتتكم فى الحياة . لا يريدونها يسراً ولا خيراً لكم ) .

« قد بدت البغضاء من أفواههم ( أى يتحسس الإنسان فى أحاديثهم عن المؤمنين ، رغم قدرتهم على التكتف والتخفى : بغضهم وكراهيتهم لهم ) وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ، إن كنتم تعقلون ( وما تطويه نفوسهم من الحقد ، والنصغية ، والكراهية على المؤمنين أكثر بكثير مما يظهر فى ثنايا كلامهم . والعاقل هو من يستفيد مما اتضح إليه من أمارات العدو ، والصديق ) ،

« ها أنتم أولاء تحبونهم ، ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ( وأنتم أيها المؤمنون فى وضعكم الحالى مع أهل الكتاب من اليهود حول المدينة : تميلون إليهم بقلوبكم ، أكثر مما كنتم تميلون إلى المشركين الماديين بمكة . لأنكم كنتم تؤملون فى إيمانهم كثيراً ، كأهل كتاب . ولكن هم فى واقع الأمر لا يحبونكم ولا يميلون إليكم . لأنهم يحقدون عليكم ، ويحسدونكم من أجل فضل الله بالرسالة عليكم ، وقد كانوا يودون : أن تبقى لهم الزعامة الدينية بما جاء إليهم من كتاب من عند الله . ولكن مجيء القرآن كان ضرورة إنسانية ، بعد أن حرف زعماء بنى إسرائيل كتاب الله قبله . ومع كونكم - أيها المؤمنون - تميلون إلى أهل الكتاب ، رغم عدم ميلهم هم إليكم : فإنكم تؤمنون بالكتاب كله . أى تؤمنون برسالة الله كما جاء بها موسى ، وكما أرسل بها رسولكم محمد عليه السلام ، فى القرآن ، مصداقاً لما قبله . ولكنهم هم لا يؤمنون بكتاب الله . إذ أنهم يبدون لأتباعهم من رسالة الله جزء ، ويخفون عنهم منها أجزاء . .. يخفون منها ما يؤيد القرآن ورسالة الرسول عليه السلام . ولذا اتخذوا أمام أتباعهم موقف المعارضة منه ) ،

« وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور ( أى وموقفكم

أيها المؤمنون من أهل الكتاب هو ما سبق . أما موقفهم منكم : فإنهم يخادعونكم : إذا واجهوكم ، والتقوا بكم : أعلنوا إيمانهم بالرسول وبرسالته ، ليضلواكم .. وإذا التقى بعضهم ببعض ، بعيداً عنكم ، نفسوا عن غيظهم وحقدهم بإعلانه في غير حرج . ولكن هذا لا يضركم . فقط يجب أن تأخذوا حذركم منهم .. وتتجنبوا ولاءهم وصدقاتهم .. واتركوهم لغيظهم وحقدهم يأتي عليهم ويفنيهم . والله سبحانه إذ يعلمكم بهذا الوضع ، لأنه يعلم ما تخفيه الصدور ، وما في طيات النفوس ) .

« إن تمسككم حسنة تسوؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ) وبالإضافة - في مجال أسباب عدم موالتهم ، واتخاذ الحيلة منهم - إلى : عدم تقصيرهم في بث الفساد بين المؤمنين .. وإلى تمنيتهم مشقة الحياة وعنتها عليهم .. وإلى أنهم يفسدون العداة لهم بصفة مستمرة ، ويعلنونه أحياناً في أحاديثهم .. وإلى أنهم لا يؤمنون بكتاب الله ، كما جاء لهم : بل يؤمنون ببعض ، ويكفرون بالبعض الآخر .. وإلى أنهم يحاولون خداعهم بإعلان إيمانهم في وجوههم ، وإعلان الحقد والغيظ منهم وراء ظهورهم .. بالإضافة إلى هذا كله : فهناك سبب آخر يكشف تماماً عن عداوتهم . وهو : أنهم يستاءون عندما يصيب المؤمنين ما يسرهم .. وعلى العكس : يفرحون ، عندما ينالهم سوء . ولاشك أن هذه أسباب كافية وواضحة في أن يتجنب المؤمنون : المودة ، والصدقة معهم .. ويسلكوا مسلك عدم الثقة بهم في معاملتهم ) ،

« وإن تصبروا ، وتقوا ، لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » ( ومع عدم الولاء لهم ، والصدقة معهم : فإن البقاء في مرحلة الصبر والتحمل ، لم يزل هو ما ينصح به القرآن حتى الآن . ولا ترتب عليه أية آثار سلبية ، نتيجة لبغض هؤلاء أهل الكتاب ، وكرهيتهم ، ومكائدهم ، للمؤمنين . فهذا الصبر نفسه والتزامه سيفوت كذلك مضار هذا الوضع النفسي لهم ، إن كانت له مضار ، يقصد بها المؤمنون . والله سبحانه إذ لم يزل ينصح بالصبر ، مع الحيلة منهم ، وعدم الثقة فيهم :

يريد الخير بكم . لأنه نصح الخبير والمحيط بما من شأنه أن يقع من أمثال هؤلاء ( ١ ) .

— ثم تأتي سورة المائدة — وهي ما قبل الأخيرة في ترتيب نزول الوحي المدني — فتحدد : من هم المقصود بأهل الكتاب .. وتعلن في غير لبس : أن الولاء لهم من جانب المؤمنين يعتبر انتكاساً للموالين ، وعودة بهم إلى صفوفهم . وهذا التحديد .. مع الإعلان : أمارتان في منهج القرآن على الخطورة الأخيرة التي يجب أن يتخذها المؤمنون بعد ذلك : إزاء أعدائهم أهل الكتاب ، مع ما يقدمه المؤمنون إليهم حسبما يدعو القرآن ، من رغبة أكيدة في الالتقاء معهم في مجال الإيمان بالله وحده .. ومع ما دأب ، ويدأب عليه هؤلاء أهل الكتاب ، من معارضة القرآن ، وبغض المؤمنين ، وتدبير المكائد لهم ، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر . فتقول آية في هذه السورة :

« يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا اليهود ، والنصارى : أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ( أى لا تستقيم علاقة الولاء بينكم من جانب ، وبين اليهود والنصارى من جانب آخر . لأن هناك خلافاً جوهرياً في مجال الإيمان بالألوهية . أنتم أيها المؤمنون : تؤمنون بالله وحده : « قل : إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فهل أنتم مسلمون » ( ٢ ) . أما أهل الكتاب فقد انصرفوا عن وحدة الألوهية إلى الشرك فيها » وقالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاؤون قول الذين كفروا من قبل ( أى في ادعائهم الشرك في الألوهية هنا يشبهون الماديين الذين سبقوهم بالكفر في مكة بما جاء به الرسول ) قاتلهم الله : أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ، ورهبانهم ، أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ( فهؤلاء أهل الكتاب : اتخذ اليهود منهم ، زعماءهم من الأحبار : آلهة ، وأرباباً من دون الله .. واتخذ

(٢) الأنبياء . ١٠٨ .

(١) آل عمران : ١١٨ - ١٢٠ .

النصارى منهم : رعماءهم من الرهبان ، والمسيح ابن مريم : آلهة ، وأرباباً من دون الله ) وما أمروا إلا ليعبدوا لهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ( وهم بسبب شركهم فى الألوهية ، بعد أن أمروا بعبادة الله وحده : يريدون ، أن يعودوا إلى ظلمات المادية والعهد الجاهلى للمجتمع ، وبذلك يطفئون هداية الله فى البشرية . ولكن هذه الإرادة منهم لاتعدى أفواههم . لأن الله سبحانه بقدرته يأبى إلا أن يتم نوره برسالة الرسول عليه السلام وانتصاره فى دعوته ، مهما كان ذلك مزعجاً للمعارضين والكافرين برسالته ) هو الذى أرسل رسوله ( أى محمداً عليه السلام ) بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ( فالله سبحانه هو الذى اختار رسوله محمد بن عبد الله عليه السلام : للرسالة . وهى رسالة الهدى إلى النور من الظلام .. إلى نور الروابط الإنسانية بين الأفراد ، من ظلام المادية والمنفعة المتبادلة فى عهد الجاهلية . وهو سبحانه هو الذى أراد لدينه الذى جاء به رسوله الكريم أن يظهره ويسود على كل معتقد سواه ، وكل منهج فى الحياة عداه ، رغم كره المشركين : من الماديين الوثنيين .. وأهل الكتاب المعددين فى الألوهية ، لظهور هذا الدين ، وسيادته ( ١ ) .

« ومن يتولهم منكم ، فإنه منهم ( والذى يرتبط من المؤمنين بأعداء القرآن من أهل الكتاب بعلاقة ولاء أو صداقة — بعد ما اتضح من عداوتهم ، وما اتضح قليل من كثير مما يضمرونه — يصبح واحداً منهم . أى يصبح عدواً للقرآن ومنكرأ هداية الله فيه ) إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ( فهؤلاء الأعداء من أهل الكتاب أقاموا الحجة الآن على أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم بما جاء به الرسول محمد عليه السلام .. وظلموا كتاب الله بينهم ، لأنهم أخفوا الكثير منه على أتباعهم ، بينما يظهرون القليل منه لمصلحتهم ..

ولأنهم كذلك يأمرون هؤلاء الأتباع بالبر . بينما ينسون أنفسهم ، فلا يبعدون من طريقهم عقبة المادية وتأثيرها على أنفسهم : في التمسك بالزعامة ، والحرص عليها : بالكفر بما جاء به وحي الله ، مؤيداً لكتاب رسولهم بين أيديهم ( ١ ) .

وهذا الإنذار الشديد للمؤمنين بالكف عن الولاء للأعداء من أهل الكتاب لم يوجه إليهم ، إلا بعد أن أمرهم القرآن بأن يدعوا أهل الكتاب للترابط معهم على أساس من الإيمان بالله وحده . فكانت دعوته المشهورة لهم : « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ، من دون الله » (٢) . وكان الرفض من جانب أهل الكتاب .

ورسالة الله تضع أهميه كبيرة على وحدة الألوهية . لأن الإنسان في كرامته .. وفي سلوكه .. وفي تحديد مصيره : مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع ما يؤمن به . فالإيمان بوحدة الألوهية يعطى الإنسان : ثباتاً واستقراراً في سلوكه ، لأنه لا يتأرجح بإيمانه بين عديدين من الآلهة ، ولا ينتقل من واحد إلى آخر به ، ولعل أحد من يعبدهم يكون مساوياً له في بشريته أو دون ذلك .. كما يعطيه ضماناً بالبقاء في مستوى كرامته الإنسانية ، لأن الله المعبود وحده يتفوق في صفات الكمال على الإنسان ، والإنسان الذي يتقرب إليه بمحاكاة صفاته : يتفوق أيضاً في مستوى إنسانيته .

.. وإلا بعد أن أمرهم بأن يجادلوهم بما هو أكثر تهديباً ، وأبعد عن اللوم والخرج : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ( أى إلا بالطريقة المثلى في النقاش ) إلا الذين ظلموا منهم ( إذ هؤلاء لا يجدى معهم جدل ونقاش أصلاً . لأنهم صموا آذانهم عن السماع ، وحجبوا أعينهم عن رؤية الحق ) وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا ، وأنزل

(٢) آل عمران : ٦٤

(١) المائدة : ٥١

إليكم ، وإلها وإلهمك واحد ، ونحن له مسلمون» (١) . مع أن أسلوب الدعوة الذي أمر به الرسول عليه السلام ، بوجه عام ، هو أسلوب الحكمة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» (٢) .. وكانت الإساءة في أسلوب الجدل من جانب أهل الكتاب : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلوكم» (٣) .

.. وإلا بعد أن أباح للمؤمنين طعام أهل الكتاب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم» (٤) . بينما الطعام الخاص بالماديين الوثنيين ، أو المشركين : محرم على المؤمنين : « وما أهل لغير الله به» (٥) .. أى مما ذكر عليه اسم معبود آخر غير الله سبحانه ، فهو حرام .

.. وإلا بعد أن أباح للمؤمنين أيضاً : الزواج من المحصنات من الذين أوتوا الكتاب : « والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم (أى أولأئى وأولأئكن حلال لكم) إذا آتيتموهن أجورهن (أى مهورهن) محصنين ، غير مسافحين ولا متخذى أهدان (أى إن كنتم فى زواجكم منهن قاصدين : أن تبعدوا عن المسافحة واتخاذ الخديئات ٠٠ أى إذا قصدتم بزواجكم من المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم : العفة ، والبعد عن الزنا مكشوفاً ، أو فى صورة مقنعة) ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٦) .. بينما حرم على المؤمنين الزواج بالمشركات ، أى بالماديات الوثنيات : « ولا تتحكوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ، ولو أعجبتكم» (٧) .

(٢) النحل : ١٢٥

(٤) المائدة : ٥

(٦) المائدة : ٦

(١) التكبوت : ٤٦

(٣) آل عمران : ٦٩

(٥) المائدة : ٣

(٧) البقرة : ٢٢١

فالمؤمنون من جانبهم : رحبوا بمشاركة أهل الكتاب في الإيمان ،  
ودعواهم إلى طرح المعارضة وما يسىء إلى البشرية في الاعتقاد فيما وراء  
وحدة الألوهية ،

والمؤمنون من جانبهم أيضاً أمروا بأن يحرصوا على رعاية إحساس أهل  
الكتاب ، رعاية خاصة ، عند البحث في أسباب الخلاف بينهم ،

والمؤمنون من جانبهم كذلك أبيح لهم : أن يباهروا أهل الكتاب  
فيتزوجون من نسائهم ٠٠ وأن يأكلوا من طعامهم فيشاركونهم حله .  
وهكذا : طلبوا أن يكونوا معاً في الاعتقاد ٠٠ وأن يكونوا في صحبة  
بعضهم بعضاً ، في الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا ، وفي بناء الأسرة .

لكن أهل الكتاب - وبالأخص اليهود منهم - بدأوا على الكيد للمؤمنين  
٠٠ وعلى النفاق ٠٠ وعلى إضمار العداوة المستمرة . وغزوة الخندق أو غزوة  
الأحزاب ، في شوال في السنة الرابعة من الهجرة ، توضح : كيف استغل  
بنو النضير من يهود الشمال في شبه الجزيرة العربية ، بالقرب من المدينة :  
تجمع قريش ، وغطفان ، وبنى كنانة ، وأهل تهامة ، في عشرة آلاف  
مقاتل ، لغزو المدينة وفتحها ، والقضاء على الإسلام وأتباعه فيها :  
عندئذ نقض بنو النضير العهد الذي كان كان بينهم وبين الرسول عليه السلام ،  
وانضموا إلى هؤلاء المشركين في غزو المدينة والهجوم عليها . وقد كان  
الخندق حول المدينة وحفره المؤمنون يومئذ ، وهم قلة بالنسبة لتجمعات  
الأحزاب . واتخذوه يومئذ أساس استراتيجيتهم ، فأحر هجوم الأعداء  
على المدينة قرابة شهر . ولم يقع بين الفريقين إلا الترامى بالنبل والحجارة .  
حتى أتت ليلة باردة ، فيها ريح عاصفة من شرق المدينة فاقتلعت خيام  
الأعداء ، وعرضتهم للبرد الشديد . وعندئذ قرروا الانسحاب ، والعودة  
إلى ديارهم من غير قتال . ولم ينالوا من المؤمنين ما يسىء إليهم ،  
ويفرحون هم به . وفي شأن هذه الغزوة يقول القرآن في سورة الأحزاب :  
كيف كان وقعها السيء على المؤمنين ٠٠ وكيف أخرجتهم ٠٠ ثم كيف  
انتصر الله لهم :

« يا أيها الذين آمنوا : اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود ( وهم جنود الماديين الوثنيين ، وأهل الكتاب معاً . وصنع لهم المؤمنون الخندق حول المدينة ) فأرسلنا عليهم ريحاً ، وجنوداً لم تروها ( أى فكان من فضل الله أن شنت قوى الأعداء بريح باردة عاصفة . . . وتأييد للمؤمنين تأييداً غير محدود ) وكان الله بما تعملون بصيراً ،

« إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ( توضيح لما جرى في هذه الغزوة . فيصف القرآن هنا جنود الأعداء : بأنهم قدموا من أعلى الوادي في المشرق .. ومن أسفله من المغرب ) وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ( ولكثرة جنود الأعداء : مالت أبصار المؤمنين عن مستوى نظرها ، حيرة وشخوصاً .. واضطربت نفوسهم . . وتنوعوا في ظنونهم : منهم المؤمن صدقاً : ينظر إلى الحادث على أنه ابتلاء من الله . ومنهم المنافق ينظر إلى الحادث على أنه سيستأصل المؤمنين إلى غير رجعة ) .

« هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً ( أى وكان هذا الحادث لجسامة خطره على المؤمنين : امتحاناً قاسياً لإيمانهم .. كما كان سبباً في اهتزاز نفوسهم ) .

« وإذ يقول المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ( ولأنه حادث غير مألوف لهم في حياتهم لم يصادفوه من قبل مع عدد من أعدائهم كان فرصة لتدخل المنافقين في تفتيت وحدة المؤمنين ، وضعف حماسهم الإيماني . فأخذوا يلقون بسومهم بين المؤمنين . ففريق يقول : وعدنا الله بأرض الروم وفارس : « ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس

لا يعلمون» (١) .. ولكن ما وعدنا به هو ضرب من الفرور والخذاع لآنا لا نستطيع أن نتك عن مقاعدنا) . «وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ( وفريق آخر من هؤلاء المنافقين يدعوا المؤمنين من المدينة : إلى العودة إلى الشرك من جديد ، حتى يكونوا في حماية القوة المادية الخطيرة التي للأحزاب الآن . على نحو ما يدعو بعض ضعاف النفوس في المجتمعات الإسلامية المعاصرة إلى اعتناق مذهب الملحدين الماديين كقوة عالمية بارزة اليوم ، كى يضمّنوا لديهم الحماية ) .

« ويستئذن فريق منهم : النبي ، يقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً » وفريق ثالث منهم يريد أن يسلك مسلكا يهز كيان المؤمنين ، ويحدث لديهم اللبلة والتردد . فيستأذن هذا الفريق من الرسول في ترك الخندق ومن الوقوف عليه .. والعودة إلى الأهل في منازلهم ، بدعوى : أنها مكشوفة وغير مأمونة من الاعتداء عليها . وواقع الأمر لم يكن ذلك هو الدافع لاستئذانهم ، بل كان الدافع هو : الفرار ، وحمل الآخرين من المؤمنين على الاقتداء بهم ) .. إلى أن يقول الله تعالى في سورة الأحزاب : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ( أى لأنفسهم بما قدروه كهدف من أهدافهم لهذا التجمع والتكتل ) وكفى الله المؤمنين القتال ( أى ولم يحوج الله سبحانه المؤمنين : إلى أن يدخلوا مع هؤلاء الأعداء في قتال . إذ سلط عليهم الريح الباردة فغلبت عليهم كل ما قدروه من قبل ) وكان الله قوياً عزيزاً » (٣) .

فهذا مثل من الأمثلة العديدة لليهود خاصة من أهل الكتاب ، لما تنطوى عليه نفوسهم من الغدر والتربص بالمؤمنين . وهو يعطى : أن أهل الكتاب في بعد تام عن تلك الروح التي عبر عنها المؤمنين حيالهم ، بما أشار إليه القرآن من دعوتهم : في مضمونها .. وأسلوبها ، ومن معاملتهم : في مشاركتهم الحياة .. وقيام الأسرة .

(٢) الأحزاب : ٩ - ١٣

(١) الروم : ١ - ٦

(٣) الأحزاب : ٢٥

المؤمنون يرغبون في المعاملة الطيبة .. وهؤلاء أهل الكتاب يزيدون في العداة ، حتى إذا سنحت لهم فرصة يظنون فيها : أن الأمر كاد ينتهى بالمؤمنين ، لم يتركوها ، ويشاركوا الأعداء الماديين - وهم أعداؤهم أيضاً - محاولة القضاء عليهم . كما يستخلص من غزوه الخندق .

نعم قد تميز اليهود عن النصارى من أهل الكتاب بقسوة العداة ، وإحكام المؤامرات ، وإشاعة الفساد والفرقة بين المؤمنين . إوجاء في ذلك قوله تعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود ، والذين أشركوا

( فقرنت الآية اليهود بالمشركين في مستوى العداة للمؤمنين - وذلك لأن اليهود بقى لهم من كتاب موسى : الانتساب إليه فقط ، ولكن سلوكهم ، واتجاههم ، وهملهم في الحياة : تنبىء كلها عن أنهم أصبحوا ماديين : وعن أن بعضهم أصبح مشركاً بادعائه : أن عزيراً ابن الله ) ،

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن

منهم قسيسين ، ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون » ( وفي الوقت نفسه تميز هذه الآية : النصارى بأنهم أقرب أهل الكتاب في المودة إلى المؤمنين . وتوضح سبب هذا : بأنه لم يزل منهم من هو بعيد عن الاتجاه المادى . فمنهم للقساوسة ، والرهبان . هؤلاء . وأولئك بحكم اتجاههم لا يجعلون للجانب المادى سيطرة كبيرة على نفوسهم في السلوك في الحياة . ومن جانب آخر لا تغريم الزعامة ، ومن ثم لا يحرصون عليها فيؤمنون في سبيلها بالباطل ويكفرون بالحق ، كما يفعل اليهود . فهم لا يستكبرون . أى لا يتطلعون إلى أن يكونوا كباراً في المجتمع ، ولهم أتباع يخضعون لرياستهم المادية ) ( ١ ) .

ولكن مع ذلك فاليهود والنصارى سواء في أنهم : يرون أن المؤمنين بالقرآن : في ضلال ، وأن عداوتهم لهم تستهدف ردهم عن دينهم : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » ( ٢ ) .. وأن المؤمنين لكي يهتدوا في نظر أهل النكبات : يجب عليهم أن يكونوا : إما يهوداً ، أو نصارى .. أى يكونوا أتباعاً لفريق منهم : « وقالوا ( أى بنو إسرائيل

من الفريقين) : كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا ، (١) (والخطاب موجه إلى المسلمين بالأمس من أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام . وما أشبه يومنا بأمس هؤلاء . فالיום يريد أعداء القرآن : من المسلمين ، ما أرادته أعداؤه منهم بالأمس . و فقط أعداء اليوم : هم الماديون أصحاب الرأسمالية .. وكذلك الماديون الاشتراكيون أتباع الماركسية . وبشاء الله أن يكون اليهود اليوم وراء الرأسمالية .. والاشتراكية معاً في الوقت المعاصر ، وقد كانوا هم أى اليهود – بالأمس على عهد القرآن يباشرون الاتهام ضد المؤمنين ، ويوجهون إليهم الدعوة بترك القرآن . بينما اليهود والنصارى فيما بينهم : يتهم بعضهم بعضاً ، إذا لم يواجهوا المسلمين . والقرآن يحكى عنهم بالأمس ما كان يقال من بعضهم لبعض : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٢) .. واليوم كذلك إذا كان عداء الأيديولوجية الماركسية للرأسمالية العالمية واضحاً ، وإذا كان كلاهما يتهم الآخر بظلم البشرية ، وانتهاك كرامة الإنسان وحرته ، مع أن صانع الماركسية وأصحاب الثورة البلشفية والفكر الاشتراكي من اليهود .. ومع أن أصحاب الرأسمالية والتعامل بالربا من اليهود أيضاً .. فإنهما إذا واجها معاً : المسلمين اليوم فليس لهما من دعوة مشتركة إليهم ، سوى أن يتولوا لهم : إذا أردتم أن تتقدموا فكونوا إماماً من أتباع العالم الحر – وهو رمز الرأسمالية .. أو من أتباع العالم الاشتراكي الماركسي ) .

### موقف القتال :

— والمؤمنون بالقرآن — لكي يبقوا مؤمنين به — يجب أن ينتقل موقفهم الآن — بعد هذا العداء المرير : من الحيطة .. وعدم الولاء من أهل الكتاب إلى قتالهم ، إن اضطروهم هؤلاء إليه . لأنه ليس هناك في مواقف الإنسان من إنسان آخر يناصبه العداء ، ويحمل عليه ، ويدبر له المكاييد ، بعد

(٢) البقرة : ١١٣

(١) البقرة : ١٣٥

الصفح والتحمل .. وبعد إنذاره بقطع علاقة الولاء له ، في غير جدوى لهذا ، أو لذلك : إلا برد اعتدائه : بالقتال ، إن اتخذ هو القتال صورة مادية لعداوته النفسية .

ولذا : عقب غزوة الخندق - وفي ذى القعدة من السنة الخامسة من الهجرة - يحكى القرآن الكريم ما قام به الرسول عليه السلام والمؤمنون معه ، من حصار بنى النضير وقريظة من اليهود حول المدينة ، على أثر نقضهم العهد ومشاركتهم مع المشركين الماديين في محاولة غزو المدينة في السنة التي سبقتها . ويشير القرآن إلى ذلك ، بعدما انتهى من حديثه عن الخندق أو الأحزاب ، في قول الله تعالى ، في سورة الأحزاب أيضاً :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبهم ( أى وأخرج اليهود من قلاعهم التي كانوا يتحصنون بها في قريتهم حول المدينة . فهم قد ساندوا المشركين في محاولتهم في السنة السابقة : الهجوم على المدينة . وأخرجوا الآن من هذه الحصون بدون قتال ولكن حاصرهم الرسول عليه السلام والمؤمنون معه ، مدة دامت إلى ما يقرب من العشرين يوماً ، استسلموا بعدها ) ،

« وقذف في قلوبهم الرعب : فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ( وكان وقع الحصار عليهم شديداً ، واستطاع أن يهز نفوسهم من الخوف على حياتهم وعندما استسلموا استشارهم الرسول عليه السلام فيمن يتولى الحكم عليهم فارتضوا سعد بن معاذ ، وكان جريحاً بالمدينة في هذا الوقت . وعندما حضر بعد استدعائه : أشار بقوله : تقتل المقاتلة ( أى من الذين اشتركوا في غزوة الأحزاب مع المشركين ) .. وتسي الذرية والنساء .. وتقسم أموالهم فأخذ به ، وحكاه القرآن هنا في قوله : «تقتلون ( أى فريقاً منهم ) وتأسرون فريقاً » ،

« وأورثكم أرضهم ، وديارهم وأموالهم ( لأنهم أجلوا عنها بعيداً إلى الشمال . وقسم المسلمون ما أخذوه منهم ، شيئاً : أعطى منه المهاجرون ، ولم يعط الأنصار ) .

« وأرضاً لم تطأوها (ويقول المفسرون : إنه يشير إلى أرض الروم ،  
والفرس .. وقيل إنه يشير إلى أرض خيبر لليهود أيضاً في شمال المدينة .  
وقد أخذت عنوة في السنة السابعة ) وكان الله على كل شيء قديراً » (١) .

نعم المسلمون وإن لم يقاتلوا بالسيف بنى النضير ، وقريظة ، ولكن  
حاصروهم بما يشبه القتال به ، في آثاره : من الرعب والخوف ، والجوع . ولذا  
كان التسليم : نهاية له . فالحصار نوع من قتال الأعداء .. وهو موقف آخر  
فوق موقف : عدم الولاء للأعداء ، الذي التزم به المسلمون حيال أهل  
الكتاب حتى الآن . ثم عندما كان فتح خيبر ، وهي مركز اليهود في شمال  
شبه الجزيرة في السنة السابعة من الهجرة ، قيل إنها أخذت كلها بالقتال ..  
وقيل إن بعضها أخذ بالقتال .. والبعض الآخر لم يحتج فيه الأمر إلى السيف ،  
فأخذ صلحاً .

وكان الأمر بعد ذلك : أجلى الرسول عليه السلام : يهود المدينة كلهم ،  
من : بنى قينقاع ، رهط عبدالله بن سلام .. ويهود بنى حارثة .. وكل  
يهودى آخر بالمدينة .

— والقتال إذا طلب كموقف يجب أن يتخذه المؤمنون ضد أعدائهم :  
فإنه أمر ليس بالمقبول لدى النفوس البشرية عامة . ولكنه ضرورة قد تقتضيها  
الحياة نفسها . كالفصاح مع أنه قتل لنفس إنسانية ، لكنه من جانب  
آخر فيه — حياة لأمة وللمجتمع : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى  
أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ،  
والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢)

وضرورة القتال في الحياة الإنسانية هو لوقاية المجتمعات من الفساد  
والانحرافات ، التي قد يباشرها العابثون فيها ، وربما يسيطرون به على مصيرها :  
« ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله  
ذو فضل على العالمين » ( أى لولا عناية الله بالبشرية في أن يتصدى من وقت

(٢) البقرة : ٢١٦

(١) الأحزاب : ٢٦ - ٢٧

لآخر بعض من الناس ، وهم المستقيمون ، لبعض آخر منهم ، وهم  
المفسدون ، بالقتال والإفناء : لسيطر الفساد والعبث على هذه الأرض .  
ولكن فضل الله على البشرية اقتضى هذه الرعاية بدفع الناس ، بعضهم  
بعضاً ، كقانون يحكم هذه المجتمعات وقيل هذا القول في الآية تعقياً على  
هزيمة داوود لجالوت وجنوده .. أى تعقياً على قتال أهل الكتاب للماديين  
من الأشوريين ) ( ١ )

وقد فسر ما جاء في سورة الحج — وهى السورة السابعة عشر في  
ترتيب نزول الوحي المدني — الفساد ، الذى أشارت إليه الآية السابقة .  
وهو الفساد الناتج عن عدم الممارسة للعبادة لله سبحانه ، من أهل الكتاب  
والمؤمنين جميعاً . أى هو ذلك الفساد الذى يم البشرية يوم تطفى المادية ،  
وتهدم كل أمكنة العبادة .. وتنشر كل إباحية ورذيلة : خلقية ، وجنسية  
وما جاء في سورة الحج هو قول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم  
ببعض : لهدمت صوامع ، وبيع (لنصارى ورهبانهم) وصلوات (للبيوت)  
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله  
لقوى عزيز » ( ٢ ) .

وبما تشير إليه هاتان الآيتان هنا يصبح القتال بين الماديين ، ومن عداهم من  
الإنسانيين أو المؤمنين بالله ضرورة بشرية ، أو قانوناً من القوانين الاجتماعية  
التي تحكم البشرية . ولكن : ما هى المجتمعات التي يقع بينها القتال لإنقاذ  
البشرية من فساد المادية ؟ . ومتى ، وفي أى جيل ؟ ذلك رهن بالظروف  
التي تكون جو القتال .. ووقته .

ولضرورة القتال كقانون بشرى اجتماعى . يطلب القرآن من المؤمنين  
في الصورة الثانية في الوحي المدني ، وهى سورة الأنفال : أن يعدوا  
أنفسهم للقتال . أى أن يكونوا على استعداد لمواجهة أعداء الإيمان في أى  
وقت ، وفي أى عهد من عهودهم . فيقول تعالى :

« وأعدوا لهم ( أى للأعداء الذين ذكرهم الله فى قوله قبل هذه الآية : « إن شر الدواب عند الله : الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون (١) » ما استطعتم من قوة ( عديدة ومادية ) ومن رباط الخيل ( من الحصون والقلاع ) ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ( مستهدفين من هذا الإعداد : أن يخشاكم أعداء الإيمان ، وهم أعداء الله ، الذين تكشفتم لكم عداوتهم . . . وكذلك أولئكم الذين من وراءهم يساندونهم فى خفية منكم . قبل : إن اليهود . . . أو الفرس كانوا من وراء الماديين يومذاك . فأنتم لا تعلمونهم ، ولكن الله يعلمهم ) وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ( ويجب أن تتذكروا : أن إنفاقكم فى الإعداد والعدة لمواجهة أعداء الله ، هو إنفاق فى سبيل الله . وأى شئ تنفقونه فى هذا السبيل يؤدى لكم جزاؤه من غير نقص ، من الله جلت قدرته ) (٢) .

ولقيمة الحديد وصناعته فى الإعداد للقتال والقوة المادية : امتن الله به على المؤمنين ، كما يمتن عليهم بكتاب الله ورسالته فى سبيل الهداية لأن هذا الكتاب إذا كان للهداية . . . فالحديد للقوة وللعزة . والهداية ، والقوة المادية أمران ضروريان لنصرة دين الله . . . ومقاومة عبث المادية وفسادها على هذه الأرض : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز » (٣) .

— وقاتل المؤمنين لأهل الكتاب يستهدف رد عدوانهم على الأمة . . . كما يستهدف استسلامهم ، وكسر شوكتهم : بينما قاتلم للمشركين يستهدف : حماية الدين نفسه . أى يستهدف : أن يصبح الدين بعيداً عن فتنة المادية ، وما يثيره الماديون من قلق واضطراب بين المؤمنين ، أو ضدهم ، ومن تشويه للدين والصد عن سبيله .

(٢) الأنفال : ٥٥

(١) الأنفال : ٦٠

(٣) الحديد : ٢٥

ففي قتال المشركين يقول الله تعالى :  
« فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ( أى وبذلك أصبحوا  
مؤمنين في العمل والتطبيق ) فإخوانكم في الدين ، ونفصل الآيات لقوم  
يعلمون » (١) .

.. ويقول أيضاً :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا  
( أى بالإيمان بالإسلام ) فان الله بما يعملون بصير ، (٢) . .

.. محدد الهدف الذى ينتهى إليه قتال المؤمنين للماديين بما يعبر  
عنه للقرآن هنا : بأن لا تكون فتنة : ويكون الدين كله لله ، وذلك  
بالقضاء على المادية والماديين .. وبما يعبر عنه من قبل : بتوبة الماديين ،  
وإيمانهم عن طريق أدائهم للصلاة . والزكاة . فالقضاء على المادية والماديين  
هدف يجب أن يستهدفه المؤمنون في قتالهم ، إن أجبروا على القتال  
واضطروا إليه : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ،  
واعلموا أن الله مع المتقين » (٣) .

وقتال المشركين للمؤمنين كافة : يعم المؤمنين في أى مكان ، وفي  
أى زمن . ولذا كان أمر الله للمؤمنين : « فاذا لقيتم الذين كفروا  
فضرب الرقاب ، حتى إذا أخنتموهم ( أى أكثرتم من قتالهم ) فشدوا  
الوثاق ( أى قيدهم بالأسر ) فاما منأ بعد ، وإما فداء ، حتى تضع  
الحرب أوزارها ( وتخيير المؤمنين الآن - في سورة محمد - في أسراهم  
من أعدائهم : بين المن عليهم ، وإطلاق سراحهم .. أو إفدائهم بأسرى  
للمؤمنين ، أو بمال وغيره : يأتي في وضع يختلف فيه مجتمع المؤمنين  
من ذى قبل . وهو وضع القوة . أما فيما مضى عندما عاتب رسوله

(٢) الأنفال : ٢٩

(١) التوبة : ١١

(٣) التوبة : ٢٦

على قبول الفداء لأسرى بدر في قوله تعالى في سورة الأنفال - وهي  
السيرة الثانية في الوحي المدني :

« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون  
عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب  
من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) » .. فلأن المؤمنين إذ  
ذلك لم تكن لهم قوة متمكنة من ضرب أعدائهم . فكانوا ضعافاً ، وفي  
بداية تكوين مجتمعهم . ولذا كان الأولى في ذلك الوقت : إرهاب  
العدو ، وتحطيم شوكته بقتل أسرى الحرب وعدم فدائهم ) ، ذلك ،  
ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليباوا بعضكم ببعض » ( والمجتمع  
في قتاله مع أعدائه يسور أمره بين النصر والهزيمة . لأن ذلك قانون  
الحياة الإنسانية . والقتال بالنسبة للإنسان هو ابتلاء لإيمانه وقوته : في  
ترابطه على أساس منه مع الآخرين . والمؤمنون في مجتمعهم يخضعون  
لقانون الحياة ، ولا يبتلاء الإنسان بالقتال ، لأنهم بشر . والأمر إذن مع  
أعدائهم هو أمرهم هم ، وليس أمر الله سبحانه . لأنه لو كان أمر الله  
لانتصر منهم . إذ شأنه أنه القوى العزيز الذى لا يغلب ) (٢) .

أما تحديد الهدف من قتال أهل الكتاب من جانب المؤمنين ، بأنه  
لوقاية مجتمعهم ، فالتطبيق الذى وقع مع اليهود في بنى قريظة والنضير ،  
اكتفى باستسلامهم . والقرآن يعبر عن هذا الاستسلام بتعبير آخر في قول  
الله تعالى في آخر سورة نزلت في التشريع المدني ، وهي سورة التوبة :  
« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون  
ما حرم الله ورسوله . ( وهم المشركون ، أو الماديون الوثنيون . لأنهم  
وحدهم من أعداء الإيمان بالله ، الذين ينكرون الله . . . واليوم الآخر ،  
أو البعث ، وهم كذلك الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله : في  
طعامهم . . . وفي استمتاعهم بمتع هذه الحياة . . . وفي النظرة إلى الإنسان

وحرمته ، ومسكنه ، وأولاده . وغاية القتال هنا مطوية ، يحددها في السورة نفسها مثل قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذلهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (١) » .. فغاية القتال هي الإيمان بالإسلام . وعبر عنها بقوله : « فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » ( ) ،

« ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون ( أى وقاتلوا كذلك : الذين لا يدينون دين الحق من أهل الكتاب . فطوت الآية الأمر بالقتال ، اكتفاء بذلك الأمر به صراحة عندما جاء في أولها . ولكنها صرحت بالغاية من قتال المؤمنين لأهل الكتاب . وهي الاستسلام ، مع البقاء على دينهم : حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ( أى وهم مستسلمون ) . فالصغار أو المذلة هنا كناية عن الاستسلام : أما إعطاء الجزية فذلك لأنهم لا يلزمون بالزكاة ، كالمؤمنين ، فالكى يكون هناك تكافؤ بين أفراد المجتمع ألزم أهل الكتاب بإعطاء الجزية ، بينما فرض على المؤمنين إخراج الزكاة . والجزية ليس لها مدلول آخر إلا أن من يعطيها باق على إيمانه ، لا يضار فيه إطلاقاً من جانب المؤمنين . وليست لها صلة قريبة أو بعيدة بمعنى الاستسلام ، إلا أنها جاءت نتيجة له . أما الاستسلام فهو مأخوذ من قول الله تعالى في الآية : « وهم صاغرون » ( ٢ ) .

وهذه الآية من سورة التوبة تجمل إذن أمرين :

أولاً : طلب قتال الماديين . . وأهل الكتاب ، كوقوف أخير يجب على المؤمنين مباشرته ، في ملابساته الخاصة .

وثانياً : تحاميد هدف القتال بالنسبة للأعداء الماديين : بأنه الإيمان بالإسلام . . . وبالنسبة لأهل الكتاب : بأنه الاستسلام ، وليس الحمل على الإسلام .

● وقاتل المؤمنين للماديين الوثنيين .. ولأهل الكتاب : لا يعنى أنه لا يتوقف ، إذا مرض : السلم على المؤمنين من أعدائهم . بل القرآن يأمر المؤمنين بقبول المسألة عندما تعرض عليهم ، إن كانت تحقق نفس الناي من القتال . ونى إسلام الماديين . . . واستسلام أهل الكتاب .  
يقول في سورة الأنفال :

« وإن جنحوا السلم فأجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ) والسلم هو المسألة ، وهو ما يعرف بالهدنة الآن . والجنوح إليها هو الميل لها . وهذه الآية وإن كانت جاءت عقب قوله تعالى في السورة نفسها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم (١) » . . . لكن ليس المقصود من التعقيب بها بعدها : أن يتراخى المسلمون في إعداد أنفسهم للقتال ، عندما يقبلون عرض أعدائهم بالمسألة . لأن تراخيهم في الإعداد : هو قبول منهم للمذلة . . . ووصول بهم إلى فقد استطاعتهم في فرض السلام في حياتهم ، على أعدائهم . وإنما المقصود من هذا التعقيب : إن طلب الأعداء من المؤمنين أن يسالموهم - والمؤمنون في حال قتال معهم .. أو في حال هدوء قائم على الإعداد للقتال - فعلى المؤمنين : إما أن يكفوا عن القتال .. أو يظلوا في حال الهدوء ، مع الاستمرار في حالة الإعداد للقتال . وفي حال قبول المؤمنين للمسألة يجب أن يتوكلوا على الله في قبولها . لأنه خسير مساعد لهم في وقاية مجتمعهم . . . ودينهم معاً ) ،

« وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً

(١) الأنفال : ٦٠

ما ألقت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ( وإذا استهدف الأعداء من عرضهم للسلم وقبول المؤمنين له : خداع المؤمنين لفترة ، يتقصون بعدها عليهم ، فالله كافي المؤمنين في تفويت هذه الخديعة على المخادعين .  
أولاً : لأن الله هو الذى أرشدكم وطلب منهم أن يكونوا على استعداد ماضى .. ونفسى فى مواجهة أعدائهم .

وثانياً : هو الذى ربط بين المؤمنين برباط واحد ، وهو رباط الإيمان بالله ، بدلا من الرباط القبلى والأسرى السابق . وهو رباط يقوى على الأحداث ، ويتفوق فى أثره فى مواجهة الأزمات . والأمران معاً ، من إعداد القوة .. ورباط الإيمان : كفيلا بأن يستتبعا النصر للمؤمنين أصحاب القوة ، فى لقاء القتال مع أعداء ماديين ، لا تربطهم إلا روابط المنفعة والمبادلات المادية ) ،

«إنه عزيز حكيم» (ومن صفات الله جل شأنه : العزة والمنعة ، وتفوقه فى القدرة على كل موجود سواه .. والحكمة كذلك . وهى البعد عن سوء التقدير .. وعن الجهل ، والحمق . ويريد جل شأنه للمؤمنين به فى عبادتهم إياه : أن يحاكوا فى أنفسهم : هاتين الصفتين : صفة العزة .. وصفة الحكمة . والمؤمنون على سبيل الحقيقة : هم الأقوياء الذين يحولون بقوتهم دون اعتداء أعدائهم عليهم .. وهم كذلك أصحاب الحكمة فى توجيه قدرتهم . ومن الحكمة هنا : أن يقبل المؤمنون طلب الهدنة من الأعداء . ولكنه قبول فى حذر وحيطة ، تمنع من التدر ، والخداع والخيانة . وحيطتهم هى : أن يبقوا على قوتهم دائماً ) « (١) .

وإذا كان القرآن يمنع المؤمنين من أن يطلبوا بادية ذى بدء : الهدنة مع الأعداء : فى قوله تعالى فى السورة التاسعة فى الوحى المدنى ، وهو سورة محمد : « فلا تنهوا ، وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون (٢) » : لأنه يرى فى طلبها ، امتحاناً لهم .. وتحريضاً غير

مباشر لأعدائهم : على أن يستطيعوا منذ الآن أن ينالوا منهم ، ويفرضوا عليهم شأن عداوتهم . . إذا كان يمتنعهم من ذلك ، فإنه لا يرى مجال : التراخي في حال إعداد الأمة للقتال أثناء الهدنة . . ولا يرى كذلك : أن تفوت الهدنة على المؤمنين : هدفهم في وقاية مجتمعهم ، ودينهم معاً ، من فرض القتال عليهم ، كوسيلة لدفع أهل الكتاب إلى الاستسلام . . ولحمل الماديين على العودة إلى الإسلام .

\*\*\*

وهكذا : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، في علاقات المؤمنين بأعدائهم : يحدد موقف المؤمنين إزاءهم :

أولاً : بالصبر .. والصفح عن أذاهم ، في حال ضعف مجتمعهم .

وثانياً : برد الاعتداء بمثله . . والصبر عليه : خير من رده ، إذا لم يكن مجتمعهم في حال من القوة تساعد على انتصارهم .

وثالثاً : بعدم إثارةهم بالولاء والمودة : على المؤمنين ، تمهيد لموقف التكتل بينهم ، إذا فرض القتال .

ورابعاً : بعدم الثقة فيهم .. وبأخذ الحيطة والحذر منهم ، زيادة في التكتل والتجمع بين المؤمنين .

وخامساً : بقتالهم حتى يسلم المادى . . ويستسلم أهل الكتاب .

وسادساً : بقبول الهدنة ، مع استمرار الإعداد للقوة . . ومع استصحابها لأهداف القتال مع الأعداء ، حتى تبقى لهم عزتهم ، وحريتهم في ممارسة عبادتهم وإيمانهم بالله .